روايات غادة

غادة

مادلين غرانت

فتاة المروج

www.elromancia.com

مرمورية

دار العلم للجميع
بيروت - لبنان

غـــادة

فتاة المروج

مادلين غرانت

ايجتمع الخريف والربيع؟

بيانكا في ربيعها الأول كان أمامها صيف طويل معذب لتلتقي بخريف بيتر لينكولن.. سيد المراعي الفضية..

صحيح انها فتاة قرية بسيطة، لكن القلب الربيعي لم يكن يعرف معنى الفروق الطبقية، والحب أصلاً لا يعترف بهذه الفروقات.. لكن أيمكن للسيد المطلق أن يكون له نفس المشاعر لها، أو على الأقل أيمكن أن يحس بوجودها؟

مر بيانكا وقت رهيب من العذاب كي تعرف الحقيقة!

وكيل التوزيع الوحيد في الكويت
الظمري للنشر والتوزيع
تلفون ٣٧٢٧٨٩٩

www.elmenbar.com

- ١ -

السيد..!

ارجعت هيلين روسل خصلات شعرها الطويل الأملس إلى الوراء، ونظرت بازدراء إلى شقيقتها الصغرى بيانكا التي اعلنت لتوها، رغبتها في التدريب لأن تصبح مربية في منزل للأطفال.

- إذا كنت ترغبين في قضاء عمرك ترعين قطعاناً من الأطفال المزعجين المتعبين الذين لا يرغب أحد فيهم، فهذا شأنك.. لكنني أقول أن عليك إجراء فحص لقواك العقلية.

علّقت السيدة روسل، التي كانت تجلس مع ابنتيها:

- مربية أطفال أمر جيد. واعتقد أن هناك وظائف لها أجر جيد مع عائلات تستطيع تحمل مثل هذه الفخامة.. لكن ليس من الضرورة العمل في ميتم.

ردت بيانكا بلهفة:

- لم تعد تدعى بالمياتم.. إنها بيوت أطفال.. يقسّم الأطفال إلى عائلات، وكل مجموعة يكون لها أم مسؤولة عن البيت. والبيوت

تقسم حسب الأعمار.. والبيت الذي عرض عليّ العمل فيه اليوم يضم أولاد مساكين تحت الخامسة من عمرهم!

قالت هيلين بقسوة:

- لكن لست مضطرة إلى المغالاة في الانفعال لأجلهم.

من بين بنات عائلة روسل الثلاثة، هيلين كانت التي تملك الدماغ بينهن، ولها وظيفة لامعة.. بينما الكبرى كارلا، الجميلة بينهن، فقد تدبرت لنفسها زيجة نفعية مع أشهر عازب في المنطقة.. بن هواميز يملك مزرعة فيها منزل فخم قديم.. صحيح أنه سمين وقبيح، إلا أن كارلا لم تكن يوماً رومانسية.. ماله ومركزه كانا أكثر من عزاء وتعويض لها عن جمال مظهره.

وقالت الأم متنكدة:

- لست أدري لماذا تودين الابتعاد عن البيت.. أنا أعرف أن والدك يؤمن بضرورة استقلالك، لكن ليس ضرورياً أن..

قاطعتها هيلين:

- بالطبع ضروري.. لا يمكن لبيانكا أن تبقى متعلقة بمريلتك طوال عمرها. إنها بحاجة إلى مستقبل عملي.. مع أنني لا أرى كيف يمكن أن تؤمن مستقبلها برعاية أولاد الآخرين.

قالت الأم:

- الأفضل لك أن تتزوجي عزيزتي. ويكون لك أولاد.

كانت الأم تتشوق لأن يكون لها حفيد.. فكارلا، كما يبدو، لم تكن متحمسة لأن يكون لها عائلة. وهيلين تحتقر الزواج.. ونظرت بيانكا إلى عيني أمها بعطف وابتسمت قائلة قبل أن تنطلق هيلين بمحاضرتها المعتادة عن حقوق المرأة والمساواة بين الجنسين:

- حسناً.. لا حاجة لأن تنفخي أوداجك هيلين.. فلست أنوي الزواج. لم التقِ بعد بمن أرغب في الزواج منه، أو من يرغب في الزواج مني. لكنني أحب الأطفال، وأريد أن أعمل بينهم.. والعديد منهم هو نتيجة عدم مسؤولية أمثالك من المتحررين.

ردت هيلين بازدراء:

- الاطفال مسؤولية الدولة.

- ولو كان الأمر هكذا، فعلى الدولة توظيف من يغير لهم حفاضاتهم ويطعمهم.. لا يمكن فعل هذا بواسطة كومبيوتر.

ولم يكن لهذا رد مناسب عند هيلين.. لكنها قالت:

- حسناً إنها حياتك.. ويا لها من حياة!

عادت هيلين إلى دراستها.. وعبر الهاتف أخبرت الأم ابنتها المتزوجة كارلا بخطط بيانكا.. لكن كارلا لم تهتم كثيراً بشؤون شقيقتها الصغرى، وقالت ان من المفيد لها أن تبتعد عن المنزل قبل أن تصبح ضيقة الأفق، لكن كان يجب أن تجد لنفسها شيئاً أفضل من العمل في ميتم.

بعد بضعة أيام، جاءت كارلا في إحدى زياراتها العادية إلى منزل أبيها.. وصلت دون إعلام مسبق ومعها سيدة تدعى السيدة هوليز، القادمة من الشمال على الحدود ما بين اونتاريو ومنيوتوبا، من مزرعة تدعى (العزبة الحمراء) ولم تكن كارلا معتادة أن تجيء معها بأصدقاء خلال زيارة أمها. وأحست السيدة روسل بالارتباك لهذا الشرف غير المتوقع. بينما تساءلت بيانكا ماذا وراء هذه الزيارة. فلن تأتي كارلا بالسيدة هوليز معها دون دافع.

حين ادخلت صينية الشاي فوق العربة الصغيرة، ومعها

www.elromancia.com

البسكويت والحلوى المعتاد تقديمها مع الشاي.. أخذت تتمهل في مراسم صب الشاي كي تمعن النظر بالمرأة الغريبة.. وهي تقدم للمرأة فنجان الشاي وطبقاً مليئاً بالبسكويت والحلوى، أحست أن عينان باردتان تراقبانها، وأدركت مدى بساطة ثيابها أمام فخامة ملابس السيدة، وكانت تعرف أنها لم تكن تبدو أنيقة أبداً. فماذا تجد هذه السيدة الارستقراطية فيها؟

هذا ما كشفت عنه كارلا بسرعة:

- السيدة هوليز تبحث عمن يتولى رعاية حفيدتها. واعتقدنا أن الوظيفة قد تهمك بيانكا. وستكون أفضل من الذهاب للعمل في ميتم مخيف.

- إنها بيوت، ولم تعد مياتم.. ولم تعد مخيفة في هذه الأيام، أتعني أنني سأذهب إلى العزبة الحمراء؟

قالت السيدة:

- ريفنا مكان مثير للاهتمام، وهو مختلف عن ريف أونتاريو.. ومزرعتنا تشكل الحدود ما بين اونتاريو ومنيوتوبا. وأنا واثقة أنك ستتمتعين بالإقامة فيها.. وجانين ليست طفلة صعبة المراس.. لكنها بحاجة إلى رفيق صغير في السن.. قد تأخذينها في نزهات وتعطيها دروساً بسيطة! لقد تركت في عهدتي لمدة سنة خلال سفر والدها. وأخشى أن أكون قد تجاوزت السن الذي يسمح لي بتسلية الأطفال.

- إذا كنت بحاجة إلى مربية معلمة للدروس، فأخشى أن لا يكون لي الخبرة اللازمة.

تحركت كارلا بنفاذ صبر:

- المربية المعلمة اختصاص ولى زمانه.. ولا شك أنك قادرة على رعاية فتاة صغيرة؟ كل ما تعنيه شيلا، أن تبدأي بتعليم الصغيرة الأحرف.. لمجرد التسلية أكثر من أي شيء آخر.

وقالت شيلا:

- مزرعتنا بعيدة جداً عن مدرسة الحضانة. خاصة في الطقس السيء.

بدت كارلا مصممة أن تلزم هذه الوظيفة لأختها:

- أنت لا تمانعين في العزلة.. فأنت لم تكوني يوماً مولعة بالمرح واللعب. وأنا واثقة أنكما مناسبتان لبعضكما.

لكن بيانكا لم تكن تحس بالارتياح للسيدة هوليز.. بدت لها باردة وتتصرف بتنازل المتكبر. وفكرة البقاء معها لوحدهما وطفلة صغيرة في أراض واسعة زراعية.. لم تكن ترَوق لها كثيراً.

فردت بإصرار:

- الأفضل أن أعمل في بيت للأطفال. واحصل بهذا على تدريب ملائم. وبكل تأكيد ستجدين من هي أكثر ملائمة مني.

لكن السيدة قالت إنها حاولت استخدام الفتيات المحليات لكنهن لم يبقين، واشتكين أنهن لا يستطعن مقابلة أصدقائهن الشبان.. وهل لدى بيانكا صديق شاب؟

ردت كارلا عن أختها ببرود:

- بيانكا لا تهتم بالشبان.

ظهر الاهتمام في عيني شيلا الشاحبتين:

- يا عزيزتي أنت من صنف نادر الوجود في أيام حرية المرأة هذه.. ولن يكون هذا عائق أمامك.. تعالي معي، ولن تندمي..

www.elromancia.com

على أي حال، لن يكون مقامك لوقت طويل، وبإمكانك الحصول على تدريبك كما تشائين حين يعود فيليب وزوجته.. وسنعاملك كفرد من الأسرة.. في المنزل أنا، وابني غير المتزوج، وهو توأم لفيليب، وابن أخي، لكنهما يبقيان مشغولان خارج المنزل طوال النهار، وهكذا تبقى المسكينة جانين لوحدها.

أحست بيانكا بالاشفاق على الطفلة المسكينة الوحيدة.. لكنها لا تريد الذهاب بعيداً إلى حدود منيوتوبا.. إنها منطقة لا تعرف عنها الكثير، ما عدا انها في الشمال وتدعى القمة الحمراء. فالتفتت إلى أمها تسأل:

ـ ما رأيك أمي؟

ـ إنها فكرة رائعة.. وستقيمين هناك مع أناس رائعين.

إنهم أسياد المنطقة، واعتقد أنك ستسدين خدمة جليلة للسيدة هانيز.. والأمر ليس لأكثر من سنة.. ثم إنك ستعتادين على الابتعاد عن بيتك دون الاضطرار إلى الاختلاط مع الغرباء.

نظرت كارلا إلى أختها بابتسامة في عينيها الزرقاوين:

ـ لا ترمي بالفرصة عرض الحائط بيانكا.

لكن بيانكا لم تكن تنظر إلى الأمر وكأنه فرصة، وأحست بكراهية لا تعرف سببها لذلك المكان النائي.. مع أن هذا أمر غير منطقي.. فقد يكون العيش فيه بهيجاً.

ـ سأفكر بالأمر.

بدت خيبة الأمل على شيلا، بينما صاحت كارلا بقساوة:

ـ تفكرين؟ كنت أظنك ستقفزين متشبثة بالفرصة..

لماذا تحتاجين للتفكير بحق الله؟

وقالت شيلا:

ـ أنا لن أسافر قبل بضعة أيام. وهكذا سيكون أمامك وقت للتفكير بوضعي. لديّ بعض الصور للمكان قد ترغبين في رؤيتها.. أيمكنك كارلا المجيء إلى العزبة معها؟

دبرت كارلا امر ذهابها مع بيانكا في اليوم التالي. حين وصلت أدهشت بيانكا بالطلب إليها أن تشاهد الحديقة وما زرعته فيها.. ولم تكن كارلا تهتم يوماً بالمزروعات.. مسكبة الزنابق كانت تملأ الهواء بعطرها، بينما مساكب النرجس البري تختبىء في ظلها من ريح الشرق.. وتمددتا بين الزهور بمواجهة المنزل المدهون بالأبيض، تعطيه الشمس ألواناً ذهبية.. وقالت كارلا:

ـ لا تكوني حمقاء بيانكا.. للسيدة هانيز ابن غير مرتبط يعيش معها، وفي ذلك المكان المعزول قد تتوالفا مع بعضكما، وإذا عرفت أن تلعبي أوراقك جيداً، وأن تجملي نفسك قليلاً.. قد تتمكني من جذب نظره إليك.. وأنت هنا لن تلتقي بأحد.. حين ذكرت شيلا حاجتها لمربية لجانين فكرت بالفرص التي ستكون أمامك.

تعالى الدمّ الأحمر إلى وجنتي بيانكا وهي تصيح ساخطة:

ـ كارلا.. كيف يمكنك قول هذا؟ لست أبحث عن زوج! وهذا آخر سبب قد يقنعني بالذهاب.

قالت كارلا بنفاذ صبر:

ـ أوه.. أخرجي من هذه البلاهة.. ولا حاجة لأن تتظاهري بها أمامي.. كل فتاة تبحث عن زوج، هذا أمر طبيعي، اعترفت به أم لا.. حتى هيلين مع كل أفكارها المتحررة السخيفة، لن تدير ظهرها إلى عرض جيد.. وعائلة هوليز أسياد منطقتهم. وهذه

www.elromancia.com

فرصتك لدس قدميك تحت طاولتهم.

أجفلت بيانكا للتعبير السوقي، وقالت بحدة:

- ليس لدي اللهفة التي لك للارستقراطيين. إنهم عادة متعجرفين. أما هذا الشاب، فأنا واثقة أنه لن ينظر إليّ. فلست جميلة مثلك.

- لكن لن يكون لك منافس.. والقرب يفعل العجائب.. ثم، يمكن أن تكوني جذابة جداً لو اهتممت أكثر بمظهرك. لديك جسد جميل.. لو ارتديت ملابس تناسبك.

نظرت بيانكا إلى بذلة اختها الأنيقة بالبنطلون، وإلى شعرها الذهبي المسرح بعناية:

- لا أظن السيدة هوليز سترحب بمربية ترتدي البنطلون. ثم.. لو ذهبت فسيكون هذا لأجل الطفلة فقط. فأنا لن اهتم بالسيد هوليز، وأنا واثقة أنه لن يهتم بي.

تنهدت كارلا:

- حالتك ميؤوس منها!

الصور التي كانت مع شيلا للمزرعة والعزبة، كانت تظهر منزلاً مربعاً على جانبي بابه الأمامي نوافذ مستديرة ناتئة من النوع المعروف بالمشربية. كانا يشبهان برجين نصف مستديرين، والنوافذ الزجاجية المستطيلة، ثلاثة في كل نافذة، كانت من طراز القرن التاسع عشر. حوله أشجار ومروج، وتظهر أحد الصور مراع خضراء واسعة.. وكان هناك صورة للطفلة، تظهر فتاة شقراء الشعر والطفولة كانت تتناقض مع النظرة في عينيها، اللتان تحملان الخوف. إنها طفلة لم تتجاوز الخامسة، هجرها والدها، وتركت في

رعاية جدة واضح أن ليس في قلبها شفقة أو تعاطف. ولا شك أن يكون العم يشابه أمه. لا عجب إذن أن تبدو المسكينة خائفة ضائعة.. وأحست بيانكا بعطف على الفتاة:

- إذا كنت لا زلت مصممة سيدة هوليز، سأكون مسرورة بقبول الوظيفة.. واعتقد أن السيد هوليز.. ابنك موافق؟

- إذا كنت تعنين والدها، فقد تركها بين يدي. أما ميتشل، فلا شأن له بالأمر. وكل ما أرجوه أن يجعله وجود شابة في المنزل أكثر تمدناً.

اتسعت عينا بيانكا لهذا التصريح.. لم تستطع تصور أن يكون ابن لعائلة ارستقراطية فظاً غريب الأطوار.. وكيف يمكن أن لا يكون لوظيفتها شأن معه إذا كان فظاً.. وهو سيد المزرعة؟

أخذت شيلا على الفور تبحث الترتيبات لسفر بيانكا معها. وازداد حذر بيانكا، لإدراكها أنها في لحظة تهور الزمت نفسها. لكن بما أن هذا قد تم.. فلا سبب يدعو إلى تأخير السفر. وهما في طريق العودة إلى المنزل، تذكرت أن هناك ابن أخ السيد هوليز كذلك في المنزل، لكن بما أنها لم تذكره، فمن الواضح أن لا حساب له في الأسرة.

الواقع، كان مختلفاً تماماً عن كل توقعاتها.. فقد خرج ميتشل ليستقبل أمه وبيانكا عند وصولهما، وكان يقف عند أعلى السلمات الموصلة إلى الباب الأمامي حين توقفت سيارة الأجرة التي جاءت بهما من محطة القطار.. كان الوقت أول الليل والغسق يرسل نوراً خفيفاً يسطع على شعره القاتم. وجهه شاحب اللون، وقسماته واضحة المعالم. كان أكثر الرجال وسامة ممن شاهدتهم بيانكا من

www.elromancia.com

قبل. لكن وجهه لا يحمل معالم السعادة، في عينيه السوداوان الجميلتان نظرة كئيبة متعبة.

نزل السلم وهما تنزلان من السيارة، ونظر إلى بيانكا نظرة طويلة متفحصة.. ثم استدار إلى أمه مبتسماً، فقالت السيدة هوليز:

ـ آنسة روسيل.. هذا ابني.. ميتشل.. والآنسة روسل فتاة ريفية.

وكأنها تفسر له قلة زينتها وأناقتها.. فهز رأسه:

ـ أهلاً بك في المزرعة الحمراء.. مع أنني أخشى أن يكون ترحيب المزرعة بك بارداً.. تفضلي إلى الداخل قبل أن تجمدي برداً.

نظرت شيلا بقلق إلى الباب وسألت بلهفة:

ـ أين بيتر؟

هز كتفيه:

ـ وكيف لي أن أعرف؟ وهل أنا حارس ابن خالي؟ إنه هو الملاك الحارس.. وليس أنا.. غائب منذ الصباح ولم يعد بعد.

بدا على شيلا الارتياح وصعدت السلم قائلة:

ـ من الأفضل انه غائب.. فهذا سيعطي الآنسة وقتاً للاستقرار قبل أن تلتقيه.

لهجتها كانت تقترح أن لقائهما قد يكون محنة.. وضحك ميتشل.. لكن ماذا يعني ميتشل بدعوته الملاك الحارس؟

ودعتها شيلا للدخول قائلة أن الحقائب ستؤخذ إلى غرفتها.. ولحقت بها بيانكا إلى الردهة، الواسعة المساحة الحجرية الجدران.

منها يمتد سلم عريض يقود إلى الطابق الأعلى.. وأحست أنها تسير في زمن غير زمنها، كان يحيط بها على الجدران أشياء لم تعد صالحة اليوم، رؤوس ثعالب، وذئاب، وجلودها.. ومصابيح قديمة الطراز.. الفكرة دفعتها للابتسام مع أنها داخلياً كانت تندم لطيشها الذي جاء بها إلى هنا، إلى هذا المنزل الرهيب المنظر بين أناس غرباء.. كما أن المكان بارد جداً.. وكأنما شيلا أحست بما يعتمر في نفس بيانكا، فقالت:

ـ الربيع يصل متأخراً هنا، وغالباً ما يبقى الثلج على الجبال في آذار. تعالي إلى غرفة جلوس الصباح.. ستكون دافئة.

كانت الغرفة التي قادتها إليها فعلاً دافئة، كان فيها نار كبيرة تشتعل بالحطب داخل مدفأة قديمة الطراز. الستائر السميكة مغلقة فوق النوافذ، وضوء النار يجعلها تبدو مبهجة. وأضاءت شيلا النور لترى بيانكا انها غرفة صغيرة، جدرانها مكسوة بالخشب اللماع، والسجاد السميك يغطي الأرض، ومقاعد بذراعين حول النار.. خزانة على أحد الجدران تحتوي على عدد كبير من الكؤوس الفضية والجياد التي كسبتها في السباقات. وبدا واضحاً أن العائلة تقوم بمعظم أعمالها في الشتاء في تلك الغرفة.. واتجهت بيانكا باندفاع مرتاح نحو النار وسألت مترددة:

ـ هذا.. السيد.. بيتر.. أهو ابن أخيك؟

كشرت شيلا وجهها كأن الموضوع كريه وأجابت:

ـ أجل.. بيتر لينكولن هو مالك هذا الصرح الضخم وبما أنه أعزب، فهو أكثر من ممتن لي لإدارتي منزله له. أنا هنا منذ وفاة زوجي وواجباتي تشمل استخدام من أشاء. وهذه كلها صور

www.elromancia.com

لبطولات كسبها في مختلف المعارض فالجياد تؤصل هنا منذ كان في المزرعة أول فرد من عائلة لينكولن. . كنت واحدة منهم بالطبع، قبل زواجي. تفضلي بالجلوس.

وأشارت إلى مقعد قرب النار، فجلست فيه باسترخاء تفك معطفها وتخلع الشال عن رأسها. . وكانتا قد تناولتا عشاءً مبكراً في القطار، لكن امرأة مسنة تقدمت تسأل ما إذا كانتا تريدان شيئاً. وقدمتها شيلا:

ـ هذه السيدة داوسون، مدبرة المنزل. إنها هنا طوال حياتها، الآنسة روسل جاءت لتعتني بالآنسة جانين.

كانت السيدة داوسون بدينة وجهها لوحته الشمس والريح، شعرها الرمادي مربوط إلى الخلف بلفافة عريضة. ترتدي ثوباً رسمياً أسود على عنقه بروش قديم، وبدت كأنها امرأة من القرن المنصرم. . فجأة وجهها المتجهم استراح بابتسامة:

ـ أهلاً يا فتاتي. . أرجو لك النجاح.

ضحكت شيلا:

ـ أهل الريف هنا صريحون جداً.

فاستدارت إليها مدبرة المنزل:

ـ وما الخطأ في هذا؟ نحن نقول ما نعني أن نقول. .

قاطعتها شيلا:

ـ أيمكن أن تصنعي لنا بعض القهوة. . أرجوك؟

ـ حاضر. . سأفعل. . أرى أن كليكما متعبتين. . والليلة باردة.

قالت شيلا بعد أن غادرت المدبرة:

ـ السيدة داوسون هي ما يقال عنها إنها كنز ثمين. . إنها مخلصة للعائلة، مع أنها أحياناً صريحة إلى حد الإزعاج. إنها تقوم بالطهي، وأساعدها فيه. . ولدينا زوجان يسكنان فوق الاسطبلات، الزوجة تساعد في عمل المنزل وزوجها ليونيل يعمل في كل شيء. . وهناك فتاة من القرية، تأتي يومياً. . فهل تمانعي في العناية بغرفك؟

ـ سأكون مسرورة.

لكنها تساءلت كم غرفة ستعطى في هذا المنزل الكبير.

ـ بام، فتاة القرية، تعتني الآن بجانين. . أنت وجانين ستتناولان الفطار في غرفة الدرس. والغداء نتناوله معاً في قاعة الطعام. والعشاء. .

ـ يمكن أن أتناوله على صينية في غرفتي.

دخل ميتشل في تلك اللحظة وسأل:

ـ تتناولي ماذا على صينية؟ العشاء؟ لا تكوني سخيفة!

بكل تأكيد ستعيشين معنا. . من يدري، قد ينتهي بك كل هذا كما في الروايات، وتقعين في حب واحد منا. . وكم أرجو أن أكون أنا.

ردت بحياء:

ـ هذا لا يحدث إلا في الكتب.

ـ لا تكوني واثقة، فحتى الكتب الخيالية مبنية على وقائع. وأنا لا أجدك غير جميلة. . لديك سحر مميز لعالم قديم. . وكأنك من بقايا القرن الماضي. أين تربيت؟ في دير؟

ـ لا. . بل أنا أصغر ثلاث شقيقات. . ويبدو أنهما طغيتا عليّ.

ـ وأنت الآن طرت من العش. أكنت متشوقة لتجربة

www.elromancia.com

جناحيك؟ يجب أن تدعيني أساعدك بأول طيران لك.

التفتت إلى السيدة هوليز مستنجدة، فقالت لها:

ـ بالنسبة للعشاء عزيزتي، يمكنك فعل ما يحلو لك.

بما أنها لا تملك ثوب سهرة يناسب العشاء فقد قررت بسرعة:

ـ إذن سأبقى في غرفتي. إذا كان هذا مناسب.

نظر ميتشل إليها ساخراً:

ـ هذا قرار مؤسف منك. كنت أتطلع شوقاً إلى رفقة شابة على مائدة العشاء.. فنحن ندعو تلك الوجبة عشاء لمجرد ارضاء أمي، لكن في الواقع إنها مجرد تناول طعام. فلماذا تريدين حرماننا من رفقتك؟ هل تجدينا غير مرغوب فينا أم أننا نخيفك؟

ردت بخجل:

ـ حسناً.. أنا أشعر ببعض الخوف.

ـ لا حاجة لخوفك.. قد نبدو أننا نعيش في القرون الوسطى، لكننا لا نعض. مع أن بيتر متجهم قليلاً ويغيض. لمعلوماتك فقط. إنه محميّ تماماً من فتنة بنات جنسك.

تعالى لون وجهها قليلاً وأجابت:

ـ هذا أمر لا يعنيني.

ـ إنك في وضع مفضّل، أنتِ وسط ذكرين غير مرتبطين.

احتجت بيانكا:

ـ اوه أرجوك..

دخلت السيدة داوسون تحمل القهوة، تسارع ميتشل لوضع طاولة صغيرة أمام أمه لتضع عليها الصينية. وسألت العجوز:

ـ أهذا كل شيء سيدتي؟

ـ أجل.. شكراً لك، تصبحين على خير.

صبت السيدة هوليز القهوة.. ولاحظت بيانكا أن الصينية والإبريق من الفضة الأصلية والفناجين من النوع الصيني الفاخر. وسارع ميتشل لإعطائها فنجانها، وهو يفعل لامست أصابعه يدها فأحست بالارتجاف:

ـ شكراً لك سيد هوليز.

ـ أوه.. لا! يجب أن تناديني ميتشل.. ما اسمك؟ لا أريد أن أناديك بالآنسة روسل.

فكرت بيانكا أن أمه لن توافق على الغاء الرسميات بينهما لكن لدهشتها ابتسمت شيلا وقالت:

ـ اسمها بيانكا.

ردت بيانكا محتجة:

ـ لا أظن أن عليك استخدام اسمي، فأنا لست ضيفة هنا. جئت لأعتني بجانين.

أعلنت شيلا:

ـ لا أرى ما يمنع أن تستخدما اسميكما في المحادثة.. فعلى أي حال نحن في بلد ديمقراطي وعصر حرية.

رد ميتشل نكراً:

ـ لكن مزرعة الحمراء، لا تزال رجعية.. عن اذنك، سأناديك بيانكا.

وابتسم.. لكن بيانكا أحست أن استخدام اسمها الأول يجعل من الصعب ايقاف ميتشل عند حده، الأمر الذي يبدو أنه سيكون ضرورياً، ونظرت إلى السيدة هوليز نظرة حيرة، إذ بدا لها أن

www.elromancia.com

السيدة تشجع التقارب بينهما، فقالت شيلا:

ـ بإعادة التفكير، أظن على بيانكا أن تتعشى معنا. لا يمكن أن تتوقع من بام أن تستمر في حمل الصواني إلى فوق.

احمر وجه بيانكا:

ـ لكن الا.. ترتدون ثياباً رسمية للعشاء؟

ـ لا.. نحن نغير ثيابنا، لكن لا شيء رسمي. أليس لديك ثوب خفيف مناسب.

صاح ميتشل:

ـ ليكن في قلبك رحمة أمي.. قاعة الطعام كالقطب الشمالي.

ـ لا بد لديها شال من نوع ما.. والآن إذا كنت مستعدة بيانكا فسأريك غرفتك.

أعطيت بيانكا جناحاً كاملاً من الغرف. قيل إنها غرفة درس، وغرفة جلوس مفروشة بأثاث مريح، مع طاولة كتابة قرب النافذة. كان هناك نار تشتعل بالرغم من أن الغرفة كانت فارغة.. باب كان يقود إلى خارج غرفة الدرس، نحو غرفة نومها، حيث هناك نار أخرى مشتعلة. وباب آخر يصل إلى غرفة جانين. ولكل منهما حمامها الخاص.

ـ حسناً.. إذا كان كل شيء على ما يرام.. سأقول لك عمت مساء.

نظرت بيانكا إلى الباب المغلق:

ـ أيمكن أن أرى جانين؟ هذا إذا كنت لن ازعج نومها.

بدت الدهشة على شيلا:

ـ طبعاً.. إذا رغبت. ستكون نائمة.

فتحت الباب لتكشف عن وميض باهت لقنديل زيتي قديم الطراز. الغرفة كانت صغيرة مفروشة بأثاث من الخيزران الأبيض المجدول، ومليئة بالدمى والألعاب.

قالت السيدة هوليز معلقة بهمس:

ـ يبدو أن بام لا تستطيع جعل الطفلة مرتبة.. وأرجو أن تنجحي معها.

وتقدمت إلى السرير الصغير تقف لتنظر إلى من فيه، وانضمت بيانكا لها.. كانت جانين تنام متكورة تحتضن دباً، شعرها الأشقر منفلش فوق الوسادة، في الضوء الخافت، لم تشاهد بيانكا سوى وجه أبيض يعلوه لون زهري قاتم، ورموش سوداء تغطي عيناً واحدة.. تمتمت الطفلة بشيء، ثم اندست أكثر بين الأغطية، فحاولت شيلا أخذ الدب منها لكن حتى في نومها لم تتركه جانين، فهمست:

ـ هذه عادة سيئة، إنها لا تخلد إلى النوم دونه.

لم ترد بيانكا لكنها افترضت أن الدب يمثل للطفلة تعويضاً عن الحرمان، والأغلب الحرمان من العاطفة. حين انسحبتا تركت بيانكا باب الغرفة الصغيرة مواربا، فقد بدت لها الطفلة معزولة وحيدة في غرفتها الصغيرة.

لوحدها، غيرت ملابسها أمام النار، وارتدت ثياب النوم، ثم اكتشفت أنها نسيت حقيبة يدها في الطابق السفلي، وهي تحتوي إضافة إلى مالها دفتر مذكراتها وعدة رسائل فيها تعليقات لا تود لعين فضولية أن تراها، على مضض قررت استعادتها.

ارتدت روب المنزل، وتمنت بشدة أن لا تقابل أحداً وهي في طريقها إلى غرفة الجلوس.. بحذر فتحت الباب وأحست بالسرور

www.elromancia.com

لوجود الغرفة فارغة، معتمة ما عدا من نور النار الخابية. حقيبتها كانت قرب المقعد الذي كانت تجلس عليه. فالتقطتها واستدارت:

ـ من أنت بحق الشيطان؟

أجفلت بحدة. الصوت الحاد القاطع النبرات، بدا وكأنه قادم من لا مكان.. ثم لاحظت ظلاً يقف في الباب.. يسد طريق الخروج. وبما أنها لم تعرف من هو، فلا بد أنه شخص لم تتعرف عليه بعد، وغاص قلبها.. فلقد قابلت ما يكفي من غرباء لليلة واحدة.

مد الرجل يده ليضيء النور لتسبح الغرفة فجأة بضوء مفاجيء.. فرفرفت عينيها تضم الحقيبة إلى صدرها تحدق بالوافد الجديد.

كان رجلاً يرتدي ثوب ركوب الخيل.. لم يكن أطول من الطول المتوسط ومع أنه في القسم الأخير من ثلاثينياته، فليس على جسده ذرة لحم زائدة. وجهه نحيل وأسمر، يميزه أنف معقوف هو شبيه الوحيد لشيلا، أما شعره الرائع القصير فكان بنفس لون بشرته البنية. وكان حوله جو النسب الأصيل والطاقة الزاخرة. مع ذلك فقد كانت العينان اللتان تنظران إليها بقساوة من تحت حاجبين بنيين معقودين، شديدتا الزرقة.. وتمتمت:

ـ أنا.. أنا بيانكا روسل.

ـ حقاً؟ هل لي أن أسأل ماذا تفعل بيانكا روسل في المزرعة الحمراء؟

ـ أنا.. المربية الجديدة.. التي سترعى جانين.

صدر عنه نعت مخاطب، ثم تقدم منها ليمسك بكتفيها ويديرها

نحو الضوء. وأخذت عيناه الشرستان تقيمانها من رأسها حتى قدميها المغطيان بالخفين، ملاحظاً صغر سنها الشديد، والرعب في عينيها الرماديتين.

ـ أتعني أن عمتي شيلا، استخدمتك.. أنتِ للعناية بجانين؟

هزت رأسها غير قادرة على الرد.. فأكمل:

ـ كا يجب أن يكون لها عقل أرجح! أنت لا زلت طفلة!

ـ قاربت التاسعة عشرة. ومع أنني لست خبيرة. فأنا متأكدة من قدرتي على التعامل مع فتاة صغيرة، مع انني اعتقد أنها بحاجة إلى الحب والتعاطف أكثر من المعاملة.

لاحظ سائلها جمال عينيها، ولمعان شعرها الأشقر الطويل الذي يكاد يغطي وجهها.. فإزداد عبوسه:

ـ لا أشك في قدرتك على التعاطي مع جانين.. هل من عادتك التجول في المنزل وأنت لا ترتدين سوى ثياب النوم.

طريقة كلامه ونظرته كانت مهينة، فاحمر وجهها. وتمتمت:

ـ أنا.. أنا أعرف أن الأمر غريب. لكن، وأنا استعد للنوم عرفت أنني نسيت حقيبتي.. وتمنيت أن لا التقي بأحد..

ومدت حقيبتها نحوه كشاهد على صدق كلامها. فقال:

ـ كان الأفضل أن ترتدي ملابسك قبل النزول إلى هنا.. متى وصلت؟

ـ هذا المساء.

نظرت إليه غير واثقة، إذا كان هذا ابن الخال، بيتر لينكولن، مالك المزرعة، فمن المهم أن تعطيه الانطباع الجيد عنها.. لكنه ضبطها في وضع لا تحسد عليه، شعرها منفلت، تبدو كفتاة

مدرسة غير مسؤولة، بدلاً من مربية وقورة.. في محاولة لتبدو وقورة سألته بلهجة رسمية:

- اعتقد أنك السيد لينكولن.

- سمعت عني إذن؟ كنت أتساءل ما إذا كانت عمتي قد تذكرت وجودي.. أجل، أنا بيتر لينكولن، ولقد وصلت لتوي إلى منزلي.. وفاتني وصولكما. لكنني واثق أن ابن عمتي كان هنا لاستقبالك؟

ضاقت عيناه وهو يسأل:

- أجل.. التقيت ميتشل.. أعني.. السيد هوليز.

- إذن التقيت بميتشل، وأرى أنه لم يضع وقته.

- أنا آسفة.. لم أكن أقصد أن أبدو.. أعني لسماعي السيدة هوليز تدعوه هكذا.. حقاً.. أنا أعرف حدودي تماماً.

- صحيح؟.. أتمنى هذا. اجلسي آنسة.. ماذا قلت اسمك؟

- روسل.. بيانكا روسل.

- اسم جميل.. حسناً آنسة روسل، لدي شيء أقوله لك.

- ألا يمكن الانتظار؟ أنا متعبة جداً.

- لن أبقيك طويلاً.. إجلسي.

كان كلامه أمراً.. وبطاعة عمياء استجابت وجلست في مقعدها السابق، مغطية ساقيها بروب النوم قدر المستطاع. وسألته بارتباك:

- ألم تكن تعرف بوصولي؟

ابتسامته كانت ساخرة:

- كنت أعرف بوصول أحد. لكنني عرفت أنها عانس لا يعرف

عدد سنواتها، التقطتها عمتي خلال زيارتها لانتاريو. لذلك ترين أن ظهورك صدمني، ويجب أن أعتذر لتصرفي السيء، لم أكن أتوقع مقابلة فتاة صغيرة جميلة، تتجول في منزلي بثياب النوم.

- شرحت لك السبب، ثم إنني لست جميلة، شقيقتي كارلا هي الأكبر والأجمل، وهيلين ذكية.. وأنا لست سوى الصغرى التي من الصعب وصف حالتها، بيانكا.

- إذن هذه مؤهلاتك الوحيدة لهذا المنصب.. لكنني قد لا أقول إن ليس بالإمكان وصفك.

- أوه.. لكن هذا صحيح.. وبالنسبة لجانين سأفعل ما بوسعي لأكون مرضية.

- لا أشك في هذا! لكن جهدك قد لا يكون ملائماً.. ولن يجنب القول آنسة روسل.. لكن المزرعة هنا ليست مكاناً لفتاة صغيرة.. إنها معزولة وموحشة جداً.. ولن تجدي سوى المتاعب. غداً سأضعك في القطار لأعيدك إلى بلدتك.

- أوه.. لا.. أرجوك. أنا.. أنا معتادة على الوحدة.. ألا يمكن أن تعطيني فترة تجربة.. أرجوك؟

- تبدين متلهفة للبقاء. كنت اعتقد أن منظر البيت سيرعبك.. لكنك قابلت ميتشل، فهل هو سبب رغبتك في البقاء؟

- لا علاقة للسيد هوليز بي. أريد البقاء لأنني رأيت جانين وبدا لي..

وصمتت.. بدا لها أن ليس من حقها انتقاد عمته، لكنه سأل:

- بدا لك ماذا آنسة روسل؟

- قد أكون مخطئة.. لكن لدي إحساس أن ما من أحد يريد

www.elromancia.com

الطفلة هنا.. كما أنني احببتها فوراً. المسكينة الصغيرة.. رأيتها واثقة أن بإمكاني مساعدتها.. فدعني أجرب.

تحرر وجه الرجل القاسي من التجهم فجأة وقال بلطف:

- مسكينة جان. عمتي لا تحب البنات.. ولو أن جان صبي لأحبتها. لكنها فتاة، ضعيفة وشيلا تكرهها... ولن أرغب في حرمانها من خدماتك التي لا شك ستفيدها.. لكنها مسؤولية كبيرة.. أترين؟ هناك اعتبارات أخرى.

- مثل ماذا؟

تأخر في الرد، يملأ غليونه بالتبغ ثم أشعله، ثم انحنى يرمي عود الثقاب في النار، واستقام ينظر إليها بعينين حادتين كحد السكين:

- بصراحة.. لا أرغب في أي تعقيدات مع ميتشل.

اجتاحت موجة حارة وجهها، وهي تصرخ ساخطة:

- لكن هذا منافٍ للتفكير السليم! فالسيد هوليز ليس له علاقة بعالمي.

- بإمكانه غزو عالمك. فابن عمتي سريع التأثر. وأنت لست صغيرة فحسب، لكنك كذلك لا تعرفين شيئاً بعد عن الحياة والرجال.

ردت ممازحة:

- اوه.. لكنك قد تندهش في الأشياء التي تحدث في الريف.

- لديّ فكرة.. فهذا مكان ريفي كذلك. لكن ميتشل...

اسود وجهه فجأة من التجهم، وقال بجفاء:

- لا.. لا.. لا استطيع المخاطرة.

- اعرف أنني أبدو غير محنكة.. لكنني لست جاهلة بالمرة لمثل هذه الأخطار.. أترى.. لدي أخت هيبية.. وأخبرتني كل شيء عن المجتمعات الإباحية.

- حقاً؟

- لكنني لا أؤمن بمبادئها.. وسأكون متحفظة جداً.

- وهل ستكوني متحفظة؟ لسوء الحظ أنا لا أؤمن بتحفظ الفتيات العصريات.

وأدار نظره إلى النار الخابية مفكراً.. بعد طول انتظار التفت إليها فاخفضت عينيها:

- إذا تركتك تبقين.. فيجب أن تعديني بأن لا تقومي بأية تنازلات فيما يخص ميتشل.

- طبعاً.. فمثل هذا لن يخطر ببالي مطلقاً.

- ألن يخطر ببالك. لا بد أنك تعرفي أنه سيرث المزرعة إذا لم أتزوج أنا.. وأنا لا أنوي هذا.. وهو يمثل مشروعاً رائعاً لفتاة شابة.

بقلق تذكرت أن كارلا اعطتها نفس الفكرة، وتصاعد اللون مجدداً إلى وجهها.

- ألا يكون من المستحيل أن يرغب السيد هوليز بمواعدتي؟

حتى ولو ظهر مثل هذا الذوق السيء.. أعدك مخلصة أن لا أشجعه..

- وهل تحافظين عادة على وعودك؟

هذا كثير! وقفزت واقفة.. عيناها قاتمتان من الغضب:

- سيد لينكولن. ماذا تظن بي؟ جئت إلى هنا لاهتم بطفلة،

www.elromancia.com

وليس لأجد زوجاً، أو حبيباً.. جانين هي محط اهتمامي الوحيد.. وأنا غير مهتمة بالمرة بالسيد هوليز ولا بما سيكون عليه.. ولا أنت حتى.

تمتم بخشونة:

- يبدين الرفض وهن راغبات.. مع إنك دافعتي عن قضيتك إلا انني لا زلت أجد صعوبة في التصديق أن فتاة صغيرة مثلك قد ترغب في دفن نفسها في مكان كهذا دون دافع خفي.. لا شك أن عمتي شرحت لك.. الترتيبات هنا حين استخدمتك؟

- أجل.. لكنني كنت مهتمة بشؤون جانين فقط. ولم تقل لي شيئاً عن احد آخر.. وبما أنني جئت الآن، لن أتخلى عن تلك المسكينة الصغيرة بسبب شكوك السخيفة!

التوى فمه الرقيق وقال:

- حسناً.. حسناً.. استرخي.. لكن تعلمين أنني قادر على جعلك ترحلين.. فأنا السيد هنا. ولا اعتبار عندي لمن تستخدمه عمتي.

- آمنت السيدة هوليز بأنني مناسبة. لم أكن راغبة في القبول حتى شاهدت صورة لجانين.. كانت تبدو مثيرة للاشفاق.

- إذن أنت عاطفية تجاه الأطفال.

قالت بهدوء:

- أرجوك، دعني أبقى.. لأجل جانين.

أخذ مجدداً يتفرس بها، وملأ صمت مرتبك الغرفة.. لكنها كانت قد آمنت أن وجودها ضروري للوقوف كحاجز بين الطفلة وأقاربها القساة الفاقدين للشعور.. ولو أبدى بيتر التصلب فستلجأ

إلى السيد هوليز لتشهد على حسن أخلاقها.

صوت وقوع حطبة في النار أجفلها، وجعلها ترفع ذقنها الصغير العنيد، وتعيد النظر إلى سيد المزرعة بترفع.. وقالت ببرود:

- أنا آسفة لأنك تعتقد أنني من النوع المغامر.. لكنني في الواقع لا أعرف كيف أتصرف للإيقاع برجل. وإذا أعطيتك وعدي، وأنا أفي بالوعود، أن لا يكون لي شأن بالسيد هوليز ما عدا المجاملة العادية.. فهل يكفيك هذا؟

كان لا يزال ينظر إليها بارتياب، ثم تبدل وجهه إلى الابتسام.. وقال:

- حسناً جداً.. أوافق أن أعطيك فترة تجربة. مع أن هذا ضد مبادئي.

- إذا كنت لا تثق بي..

رفع يده يصمتها:

- لا يمكن الثقة حيث توجد عواطف للنساء.. ولا تدعي عواطفك تتورط.. وهذا كل شيء.

سألته وقد أثارها سخريته من بنات جنسها:

- وهل تعرف الكثير عن النساء؟

- صحيح انني أعزب كبير في السن.. لكنني لست دون خبرة.. وأؤكد لك أنني سريع في ملاحظة الدلائل والبشائر. ولو اكتشفت أي تلاعب بينكما، فستعودين إلى بلدك فوراً... تصبحين على خير.. آنسة روسل.

أمر صرفها كان مفاجئاً لها، فوقفت مترددة، لا تستطيع

www.elromancia.com

تصديق أنها كسبت..

- تصبح على خير سيد لينكولن.

واستدارت نحو الباب. حيث فتحه لها وقال:

- لحظة أخرى.. لقد نسيت حقيبتك ثانية.

- شكراً لك.

- وفي المستقبل، لا تنزلي إلى هنا دون ملابس.. خبرتك الكبيرة بالرجال، كما تدعين، لا بد تحذرك من أن مثل هذا المظهر يضع أفكاراً سيئة في عقولهم.

لكن الفكرة التي وضعها هو في عقله، انها نزلت إلى هنا هكذا على أمل التقاء ابن عمته، كانت غير مبررة ولا أساس لها.

فصاحت به وعيناها تتطايران شرراً:

- ربما تريدني أن أتجول في المنزل بالمعطف..

- لن يكون ضرورياً، إلا إذا أحسست بالبرد.

وتعمد أن يسيء فهم ما قالت وأكمل فتح الباب لها:

- كان هناك سنوات شتاء ترتدي خلاله عمتي معطف الفرو وقت العشاء. لكن لحسن حظك الدفء قادم.. عمت مساء مرة أخرى آنسة روسل.

تجاوزته وعيناها منخفضتان، ووجهها أحمر.. ركضت تصعد السلم ممتلئة النفس بالكراهية.. لم تقابل في كل حياتها رجلاً كريهاً مثل بيتر لينكولن.

* * *

- ٢ -

الطفلة المذعورة

أفاقت بيانكا في اليوم التالي لتجد الشمس تشع عبر الشقوق في ستائر النوافذ. نظرت إلى ساعتها لتجدها السابعة. والفطار لن يكون حاضراً، كما قيل لها قبل الثامنة والنصف.. قفزت من السرير لترتدي روبها وتهرع إلى النافذة تفتح الستائر، وتدفع المصراع الزجاجي لتتكىء على إطار النافذة. وتتطلع إلى المناظر المحيطة بها.. "بغض النظر عن برودة الصباح.

اكتشفت أن غرفتها كانت إلى جانب المنزل، ومن تحتها مباشرة ممر مرصوف بالحصى، من وراءه مرج متدرج يرتفع من سفح تلة بني المنزل عليها.. وينتهي المرج بمسكبة زهور كبيرة، وجدار مرتفع.

مالت أكثر إلى الأمام لتنظر إلى يمينها.. هناك كان المرج المسطح ينتهي بمنحدر حاد يصل إلى جدار منخفض. وراءه حقل أخضر يمتد إلى منخفض معشوشب مليء بالأشجار التي تبدو من

www.elromancia.com

بينها لمعان المياه.. إلى الجانب الأبعد من الوادي تتصاعد الأرض بحدة نحو منحدرات جرداء لتلة مخروطية تشرف على الأرض كلها.

الحقل خلف الحديقة كان مقطعاً بجدران حجرية، وسرعان ما التقطت اذناها الحساستان وقع حوافر. ثم ظهر أمامها جواد وفارسه.. وقفز الجواد من فوق الجدار قفزة رائعة ليحط بسهولة ويشده فارسه ليقف وتتعرف بيانكا على بيتر لينكولن.. سيد المزرعة.

كان بيتر يبدو في أحسن حالاته على ظهر جواده.. وبدا لها مثل جواده الأصيل.. أصيل النسب، وله نفس تقاطيع الجواد وأناقته. كلاهما يدل على القوة، الرجل يسيطر على الحيوان ويسيطر على الرجل ارادته التي لا تقهر.

اقفلت بيانكا النافذة لإحساسها بالبرد، غسلت وجهها، تزينت ثم ذهبت إلى غرفة جانين لتجدها مستيقظة تجلس في سريرها، لا تزال تحتضن الدب.. بينما كانت بيانكا تدخل وتتجه إلى النوافذ تفتح ستائرها، كانت عينا الطفلة تلاحق تحركاتها بعينين زرقاوين متلهفتين.

- صباح الخير جانين.

ردت الطفلة مترددة:

- صبا خير.. أنت الناني الجديدة؟

جلست بيانكا عند أسفل السرير الصغير:

- أجل.. ارجو أن نصبح، أنت وأنا، صديقتان رائعتان.

وابتسمت مطمئنة الطفلة. لكن جانين لم تستجب بل انكمشت

إلى الوراء... عيناها متسعتان بالارتباك... وهمست:

- لن تضربيني؟

- يا إله السماء..! لا!

- حتى حين أكون سيئة؟

- لا.. فأنا لا أؤمن بجدوى ضرب الأطفال.. من وضع مثل هذه الفكرة في رأسك؟

- عمي ميتش.. قال إنك ستقفلي عليّ في الظلام، ولا تعطيني سوى الخبز والماء.

- عمك يمازحك.. أنت وأنا سنمرح كثيراً. ولا يجب أن تخافي مني.. لن أؤذيك ولو لأجل الدنيا كلها.. والآن.. ألن تنهضي من الفراش؟

لم تتحرك جانين، وبقيت عيناها تراقب الوافدة الجديدة بارتياب وصمت.. وسألتها بيانكا:

- ماذا سترتدين؟

- ثوب الركوب.

- ماذا؟

- درس الركوب الصباحي بعد الفطار.

- أوه.. فهمت.. كم هذا رائع.. أتحبين الركوب؟

- أكرهه.. إنه مخيف.. جدتي تقول يجب أن أتعلم.

تمتمت بيانكا بارتباك:

- أتوقع أن تحبيه مع الوقت.

وتساءلت عما إذا كانت الجدة تعرف وجهة نظر حفيدتها بالأمر. ولم يبدو لها من المناسب إجبار الفتاة على شيء تكرهه،

وبكل تأكيد يفزعها. وضمت الصغيرة شفتيها بحرد طفولي، في تعبير ينبيء أنها لن تسمح لنفسها بالتمتع بالركوب ولو بعد مئة سنة.. وقالت بيانكا:

ـ يجب أن تغسلي وجهك لتتعشي قليلاً.

ـ لا أريد أن أتعشى.

أخيراً تمكنت بيانكا من تنظيفها وإلباسها ثيابها وتمشيط شعرها، مع بعض المقاومة.. وكانت جانين تكره المشط بقدر كراهيتها لاسفنجة تنظيف الوجه.. صحيح أنها كانت تبدو ضعيفة، إلا أن ارادتها كانت حديدية.. وأدركت بيانكا أن مهمتها لن تكون سهلة.

أدخلت بام لهما الفطار.. وابتلعت جانين بضع لقمات من البيض، وشربت نصف كوب الحليب، ورفضت الباقي بحجة أنها ليست جائعة.

ـ لكنك لن تكبري وتصبحي فتاة قوية إذا لم تأكلي.

ـ سأكبر، وحين أصبح فتاة قوية.. لن آكل البيض إطلاقاً. ولن أركب الخيل، ولن يكون لي مربية شريرة مرعبة.

دخلت شيلا عليهما وهما تنهيان الطعام.. على الفور انكمشت الطفلة.. وهمست بفزع:

ـ صبا خير.. جدتي..

سألت شيلا بابتهاج:

ـ تعرفتما إلى بعضكما؟

لكنها لم تعر حفيدتها اهتماماً، بل أكملت تشرح أن دروس الركوب أمر يومي حين لا يوجد مطر.. وقالت بفخر:

ـ عائلتانا فرسان وفارسات منذ الولادة.. كنت فيما مضى أخرج للصيد على ظهر جواد، لكن فيليب ليس لديه خيل الآن.. وهذه فرصة أمام جانين لتتعلم.

ـ أو ليست صغيرة بعد على هذا؟

ـ أبداً.. أنا كنت أعرف الركوب قبل حتى أن أتمكن من السير.

أكملت السيدة، انها ترجو، بعد الركوب، أن تعطيها بيانكا بعض الدروس قبل الغداء.. بعد الظهر تأخذها في نزهة إذا سمح الطقس.

ـ جانين مدللة جداً.. وأريدها أن تنمو قوية في مناخنا الرائع هنا. صحيح أن القمة الحمراء بعيدة تجاور الحدود بين الولايتين. إلا أننا ننظر إليها كجزء من اونتاريو أكثر من منيوتوبا.

ـ وماذا تقصدين بالدلال.

ـ الاهتمام الزائد بها.

ردت الصغيرة بأسى:

ـ أنا أحب الاهتمام الزائد بي.

كانت بيانكا معتادة على رؤية أطفال لا يكبرون جانين بكثير يركبون الخيل بثقة.. كانوا يركبون نوعاً مخصصاً من الخيول الصغيرة الهادئة.. لهذا لم تكن محضرة لرؤية الركوبة المحضرة لجانين.. بخروجهما من باب خلفي للمنزل، كان الخادم ليونيل بانتظارهما يمسك فرسة رمادية ومهراً لعوباً صاخباً. المهر كان يرفع رأسه يدير عيناه ذات اليمين وذات اليسار، وإلى سرجه يرتبط سير لجام طويل.

www.elromancia.com

وصل ميتشل لينضم إليهما.. بدا لها أكثر وسامة... وابتسم لبيانكا قبل أن يستدير إلى ابنة أخيه.

- حسناً جان.. أتشعرين برغبة في القفز فوق بوابة بخمسة قضبان؟ جدتك تريدك أن تركبي معي اليوم بدلاً من السير في دائرة حول الحقل.

انكمشت جانين إلى بيانكا، فأدركت أن الطفلة مذعورة من المهر الهائج. فسألت بلهفة وقلق:

- أليس هذا المتوحش صعباً على مبتدئة؟

- ستتمسك به بطريقة ما. أتظني أنني سأركب لأسير إلى جانبها؟ يجب عليها أن تتحمل بضع سقطات قبل أن تصبح فارسة ماهرة.

كانت جانين ترتجف رعباً، فقالت بيانكا بحزم:

- سيد هوليز.. لن أقبل بهذا.. إنه قسوة صرفة!

ارتفع حاجباه.. وسألها:

- أتركبين؟

- قليلاً..

- نحن هنا جميعاً خبراء في الركوب.. وأمي مصممة أن تصبح جانين ممتازة.

- لكنكم تسيئون التنفيذ.. لتعلم أية رياضة جيداً، الأمر الأساسي هو اكتساب الثقة. وجانين لن تكتسب هذا إذا كنت ترهبها.

بدا لها للحظات أن شيطاناً يتفرس بها عبر عينيه السوداوين ثم ضحك:

- عزيزتي بيانكا.. أنت لا تعرفين شيئاً عن هذا. مجالك هو التربية.. أما الاسطبل فلي أنا.. تعالي..

ومد يده إلى الفتاة.. فنظرت إليه بطريقة تثير الاشفاق.. وصاحت:

- لا أريد أن أقع.

رد بقسوة:

- الأرض طرية متى قطعنا الفناء.. وبالتأكيد يمكنك الالتصاق بالمهر حتى تلك المسافة.. تعالي..

تمسكت جانين يائسة بتنورة بيانكا. وصاحت بحدة:

- لا..! لا..!

انتزعها ميتشل بخشونة وحملها نحو المهر، الذي أجفل من صراخ الطفلة وبدأ يتراقص.. وحاول ليونيل تهدئته لكن دون جدوى.. وتطلعت بيانكا حولها بذعر تتساءل بمن يمكن أن تستنجد.. فلو نفذ ميتشل ما يريد فسينتهي الأمر إلى كارثة.

ثم.. ظهر بيتر في الفناء. وبنظرة واحدة استوعب الموقف. فسأل:

- ماذا يجري هنا؟

كان صوته منخفضاً، لكنه جمد الجميع حتى الحيوانين الهائجين.. ونجح ميتشل في وضع جانين فوق صهوة المهر فتمسكت بقربوس السرج مذعورة، والدموع تنهمر على خديها. فصاحت بيانكا:

- سيد لينكولن أرجوك أوقف هذا!

لم يرد عليها. كانت عيناه مثبتتان على ميتشل الذي وقف

www.elromancia.com

يضرب حذاء الركوب العالي بالسوط الذي يحمله، ويبدو غاضباً متجهماً. وصاح به آمراً:

- انزل الطفلة في الحال ميتشل.

لم يتحرك ميتشل.. فركضت بيانكا ومدت يديها إلى الفتاة التي رمت بنفسها عن ظهر المهر. وضمتها بين ذراعيها وكأنها تحميها..

وتابع بيتر:

- أوامري كانت أن تركب جانين حصاناً عجوزاً.. فهذا الشرير غير مناسب لطفلة مثلها. كان يمكن أن تقتل ابنة أخيك.

عيناه الفولاذيتين كانتا مثبتتين على ابن عمته.. فابتسم ميتشل. وقال متشدقاً:

- أنت تبالغ يا رجل.. أمي كانت تؤنبني لأن جان لا تتقدم في دروس الركوب. وقالت إنها لن تتحسن على ظهر حواد عجوز.. ففكرت أن أستخدم شيئاً نشيطاً أكثر. فالشرير لا يمكن أن يندفع كثيراً مع لجام يقوده.

رد باختصار:

- معروف عنه أنه يثب ويطرح راكبه أرضاً. والحقيقة أن لا صبر لك على الصغيرة والجواد العجوز.. لكن أن تضعها على ظهر الشرير، وهو لا يزال في منتصف ترويضه، هو عمل أحمق.. أو أسوأ.

رد ميتشل ببرود:

- لم أكن أعرف أن تدريب الشرير لم ينته بعد.. كنت تحاول بيعه إلى نادي المراعي للفروسية.. فإذا لم ينه تدريبه، ألا يمكن اتهامك بالاستغلال؟

رد عليه ببرود:

- إذا كنت تريد الذهاب في نزهتك، فانطلق.

وتقدم نحو بيانكا.. التي كانت لا تزال تحتضن الصغيرة:

- لن يكون هناك تدريب لجان اليوم.. سأتحدث إلى جدتها بالأمر. من الأفضل أن تدخليها إلى البيت.. ليونيل خذ الشرير إلى الاسطبل.

قاد ليونيل المهر بعيداً بينما قال ميتشل ساخراً:

- أصدر السلطان أوامره.. وكلنا يجب أن نسرع إلى الطاعة.. آسف على هذه الزوبعة في فنجان بيانكا.. أراك وقت الغداء.

صاح به بيتر بصوت كلذع السوط:

- أتسمح بكل لطف أن تنادي هذه السيدة الشابة بالآنسة روسل.

نظر ميتشل بوقاحة إلى ابن خاله وسأل:

- أيجب أن نكون رسميين هكذا؟

رد بيتر بصرامة:

- أجل.

هز ميتشل كتفيه، ونظر نحو بيانكا وشد لجام حصانه حتى أنه صهل وأخذ يقفز فقال له بيتر:

- أوقف هذا العرض للروديو، فالآنسة روسل لا تنظر إليك.

ضحك ميتشل:

- كم تحاول اثباط عزيمتي يا ابن خالي العزيز.

وهز جواده ليسير به عبر الفناء.. يتمختر براكبه في عرض للفروسية، لكن كما قال بيتر، بيانكا لم تكن تنظر إليه، بل كانت

www.elromancia.com

راكعة أمام جانين تمسح دمعها، محاولة تلطيف شهيقها الهستيري الباكي.. لقد كان ميتشل غير مكترث أبداً برعب الطفلة.. وتذكرت أن بيتر قال لها أن تدخل الصغيرة إلى المنزل، فحملتها واتجهت نحو الحديقة.. لكنها سمعته يقول من ورائها بحدة:

- انزلي الطفلة.. ألا يمكنها أن تسير؟ إنها ثقيلة عليك!

وكأنما أحست جانين بالفزع من كرب آخر قادم. فتمسكت بعنق بيانكا وعادت إلى النحيب.

- ليست ثقيلة.. ثم إنها فزعة جداً.

تقدم بيتر نحوهما وأخذ الطفلة ليحملها بين ذراعيه حتى وصل بها إلى الطريق الداخلي أمام المنزل، حيث أنزلها لتقف، وقال بلطف:

- هاك أيتها الصغيرة. لن يؤذيك أحد... اذهبي مع الآنسة روسل وتعلمي حروفك الأبجدية.. فستجدين في هذا متعة أكبر.

وضع يده على رأس جانين ليملس شعرها الناعم وقال من بين شفتيه وهو يستدير مبتعداً:

- يا للفتاة المسكينة.

أمسكت بيانكا يد الصغيرة وقادتها إلى الداخل.. إذن بيتر ليس قاسياً كما يبدو، ولديه عاطفة نحو جانين أكثر من عمها وجدتها.

لكن، كان بانتظارهما محنة أخرى قبل الوصول إلى غرفة الدرس، على السلم تقابلا مع شيلا تنزل. وسألت بقسوة:

- لماذا تركت جانين درس الركوب؟

- قال السيد لينكولن أنه سيشرح الأمر لك.

- حقاً؟

وارتفع حاجباها المقوسان، بارتفاع أنفها المقوس:

- ليس من شأنه التدخل.. لقد أعطيت تعليماتي لميتشل.. أين ميتشل؟

ردت الصغيرة:

- عمي ميتش ذهب في نزهته.

حدقت بهما شيلا بسخرية وردت على الفتاة:

- اعتقد أنك كنت تنتحبين. واحتلتِ على عمك. أرجو أن لا تكوني لينة معها آنسة روسل.. إنها بحاجة إلى النظام.

وتابعت طريقها إلى الأسفل.. بينما كانت شفتا الصغيرة ترتجفان لكلام جدتها.. وتمتمت وهي تصعد السلم:

- أكره جدتي!

زجرتها بيانكا بلطف، مع أنها متعاطفة معها:

- لا يجب أن تقولي هذا.

فابتسمت الطفلة:

- لكنني أحبك.

تنهدت بيانكا ممتنة، فما حدث هذا الصباح حقق رابطاً بينها وبين تلميذتها.

بعد نصف ساعة، وقد غيرت الطفلة ملابس الركوب، كانت بيانكا تعرفها على أول حرف من الألفباء.. ترسمه في دوائر حضرتها لها معلمتها.. ودخل بيتر غرفة الدرس.. وبدا ظاهراً أن هذا أمر غير عادي من الدهشة التي بدت على وجه الفتاة. وسأل بلطف:

- ماذا تفعلان؟

www.elromancia.com

ردّت جانين بفخر تعرض عليه كتابتها:

ـ هذه «ألف».

ـ واضحة جداً.. لكن لا ترهقي قدراتها الفكرية.. إنها لم تتجاوز الخامسة بعد.

وغمز لبيانكا.. فردت عليه الصغيرة بثبات:

ـ لن أصل الخامسة قبل حزيران.. «عيد» ميلادي في حزيران.

ـ صحيح؟ لن أنسى هذا! أعدك.. آنسة روسل، لقد تحدثت إلى السيدة هوليز بخصوص جانين. وتوصلنا إلى حل.. أتجيدين ركوب الخيل؟

شرحت قدراتها المحدودة في هذا المضمار.. فقال:

ـ لكن سرعان ما تصبحي بارعة.. وبجسد متين كجسدك ستكونين خيّالة ماهرة.

وطافت عيناه فوق جسدها النحيل وساقيها الطويلان، فاحمر وجهها.. وسأل:

ـ أتودين أن تتعلمي؟

ردت بسرعة ولهفة:

ـ ليس مع السيد هوليز.

فضحك.

ـ لن أحلم في أن أرميكِ تحت رحمته. كنت سأعرض أن أعلمك بنفسي.

التفتت إليه غير مصدقة:

ـ لَمْ تزعج نفسك؟

ـ لا أظن إنني سأنزعج.. وقد امتع بهذا.. لكن إلى أن تستعيد جانين ثقتها بنفسها من الأفضل أن تلتزم التعليم على ظهر العجوز في الحقل المسيجَ، أيمكنك القيام بهذا؟ كل ما عليك فعله أن تمسك بالحبل وتدعي الجواد يدور.. لكن يجب أن تبتعد أكثر من هذا.. وسأهتم بأن أحضّر لها ركوبة مناسبة.. في هذه الأثناء يجب أن تتعلمي أنت الركوب وما أن تتمكني من السيطرة على جواد، تأخذينها في نزهات إلى المراعي. اعرف أنني استطيع الثقة بك.. والسيدة هانيز تظن أن هذه فكرة رائعة.

ترددت بيانكا:

ـ حسناً.. أنا.. أتظنني قادرة؟

ـ سأتمكن من الحكم أفضل حين أراكِ تركبين. ولا أريد أن أتدخل في واجباتك، لكن ارجو أن تأخذي الدروس قبل الفطار. هل نبدأ في الغد؟ لنقل السابعة إلا ربعاً؟

ـ هذا يناسبني تماماً.

ـ جيد.. اعتقد أنني استطيع تأمين بنطلون ركوب لك وحذاء مماثل.. ما هوَ قياسك؟

أخبرته مقاسها ووجهها محمَر، حرجة من نظرته الحميمة لها، التي كان واضحاً منها أنه يقدّر قياسها.

ـ ألن تظن السيدة هوليز أنني أهمل واجباتي؟

ـ قلت لك إنها موافقة.. وهي تعتقد أنه يجب توفير دافع لك للبقاء هنا. وليس هناك تسلية سوى الركوب والصيد ولن اقترح عليك أن أعلمك استخدام البندقية.

ـ أنا مسرورة لهذا.. سأكره أن أقتل أي شيء.

www.elromancia.com

- وأنا لا اصطاد كذلك. ميتشل وحده المجنون بالصيد.. الجياد تأخذ كل وقتي.. فأنا أرعى تناسلها وتأصيلها، وأرعى تدريبها.. وأرجو أن تحبي الجياد كما نحبها جميعاً هنا. فستبقيك بعيدة عن الضجر.

سألت جانين ببراءة:

- هل ستأتي مارجي معنا؟

قطب:

- لا.. وما دخل مارجي؟

- جدتي تقول إنها تحبك.

- خذ الأخبار من فم الصغار..

مارجريت لورانس، كانت إحدى تلميذاتي، وتخرجت.

نزهة بعد الظهر لم تكن ممتعة جداً. فاليوم انقلب إلى الاكفهرار وريح باردة أخذت تنفخ. وقادت جانين بيانكا إلى بطن الوادي، حيث برزتا أخيراً إلى طريق معبدة، تمر على طول الوادي، محاذية لمضمار ركض الخيل.. في مواجهة منزل المزرعة، كانت الأرض ترتفع بحدة.. لتصل إلى قمة لاحظتها بيانكا سابقاً من غرفة نومها، قالت لها جانين إنه يدعى «الحاجز».. قبل أن تقررا العودة إلى المنزل قابلتهما فارسة تتجه في الاتجاه المضاد فوق المضمار المخصص للخيل فتوقفت قائلة:

- مرحباً جانين.. من هي صديقتك.

تطلعت بيانكا إلى وجه جميل بعينين بنيتين رائعتين، وأنف مرتفع الطرف وفم ممتلىء أحمر. للفتاة شعر أسود مربوط إلى الوراء في عقدة محكمة التسريح، تحت قبعتها. وأعادت نظرها إلى جانين

التي بقيت مربوطة اللسان اصبعها في فمها تحدق بالفارسة، حتى اضطرت إلى تقديم نفسها:

- أنا المربية الجديدة.. يبدو أن جانين فقدت لسانها.

ابتسمت لها الفتاة بسحر، ومرت عيناها بانتقاد حول جسد بيانكا الملفوف بمعطف كحلي، وشعرها المغطى بشال، وقالت بمرح:

- سمعت عن قدومك.. وأتمنى أن تتمتعي بإقامتك هنا. أنا مارجريت لورانس. والسيد لينكولن صديق قديم لوالدي.

إذن هذه هي تلميذة بيتر السابقة.. وأحست بيانكا بالجزع للتناقض الذي بينهما.. مارجي أنيقة مرتبة في ثياب الركوب، بينما هي كئيبة المنظر في معطفها القديم. مع ذلك فماذا يهمها؟ عالمها وعالم مارجي متباعدان كثيراً.

تابعت مارجي حديثها قائلة إن منزل عائلتها قريب من الطريق الموصلة إلى الغابة، وأن على بيانكا زيارتها في يوم من الأيام.. وبإمكانها الاستراحة هناك، فالطريق طويلة أمام الاقدام الصغيرة، وابتسمت لجانين التي ابعدت اصبعها من فمها وقالت:

- قدماي ليستا صغيرتان! سأبلغ الخامسة قريباً.. وسأكون عندها فتاة كبيرة!

- إذن لا بد أن تكوني قادرة على السير حتى مزرعة الغابة.

ومزرعة الغابة هي اسم منزلهم.. وبتضعة كلمات مستساغة اعتذرت لتمضي في طريقها.. وراقبتها بيانكا تبتعد بعين حاسدة، تتساءل ما إذا كانت يوماً ستتمكن من الحصول على الثقة بالنفس التي تركب فيها مارجي جوادها.

www.elromancia.com

حين وصلت غرفتها، وجدت ثياب الركوب الموعودة على سريرها، وبالحاح مع جانين ارتدت بنطلون الركوب، الذي تناسب تماماً مع مقاسها، وكذلك حذاء الركوب المرتفع الساق. وتساءلت من أين أتت هذه الثياب، ولم تكن سعيدة كثيراً حين قالت جانين إنها كانت لمارجي.

كانت الشمس المشرقة من جديد ترسل النور عبر الغيوم المتلبدة حين نزلت بيانكا في الصباح التالي إلى حيث كان بيتر ينتظرها في الفناء المرصوف، يمسك جواده الكستنائي بيد وفرسة رمادية بالأخرى.. نظر إليها منتقداً وهي تتقدم نحوه:

ـ كان يجب أن يكون لك قبعة.

ـ لكنني لم أرتد قبعة من قبل.

ـ إنها ضرورية، تحمي رأسك إذا وقعت.. امسكي الجوادين وسأرى إذا كان يوجد ما يناسبك.

خطت ما بين الجوادين، ووضعت يداً على كل منهما.. وقفز بيتر السلم ليعود بعد قليل يحمل خوذة صيد مخملية. فارتدها بخضوع تحت نظرته المتفحصة، ثم أدار اهتمامه إلى الجوادين.

ـ ستجدين «غريتا» هادئة جداً. ستلحق «باللورد» بهدوء، إنها فرسة كبيرة السن.. هيا دعيني أساعدك على الركوب.

أمسكت بيانكا اللجام في يدها اليسرى وأمسكت السرج، ثم وضعت قدمها في الركاب، وبدفعة منه أصبحت على صهوة غريتا.. فقال معلقاً:

ـ لست جديرة أبداً.

ـ لم أركب جواداً كبيراً من قبل.

ـ ستجدينه أكثر راحة من النوع الصغير المسمى «جوتي» إنه ثابت أكثر. وجلوسك على السرج جيد جداً. سنسير حتى نصل إلى المرعى، ثم بإمكانك أن تحثي مطيتك لتركض.

لحقت غريتا باللورد عبر الطريق، وسار بيتر بالأتجاه المضاد للوادي، الذي قادهما بين جدران مرتفعة.. تقطعه هنا وهناك شجرة. وسارت بها غريتا وأنفها يكاد يلامس مؤخرة اللورد، إلى أن انتهت الجدران الحجرية وأصبحا فوق أرض المرعى.. فتوقف بيتر.

ـ دعيها تتقدم إلى جانبي، واركلي جنبيها بكعبيك.

وقفزت الفرسة إلى الأمام، فانتخعت بيانكا في مقعدها، لكنها سرعان ما استعادت توازنها وسعت إلى كبح الفرسة. وأخيراً تمكنت من إيقافها. وأقبل بيتر ليقف إلى جانبها.. أجالت بيانكا النظر حولها لتجد على جانبيها منحدرات جرداء ذات ارتفاعات متفاوتة. يغطيها مزيج من الخلنج البني القاتم وسيقان خضراء مصفرة، يعلوها زهر عنب الدب البري البرتقالي ينمو بينها نبات صغير الزهر أبيض اللون ناصعة أخبرها بيتر انها عشبة تدعى القطن الضبار، عبر المراعي كانت الطرقات غير المعبدة تجري وكأنها الرباطات الملتفة.. ما من مبنى يمكن رؤيته على مد البصر، ولا أشجار.. فقط بضعة حملان ترعى مع أمهاتها.. وفي تلك الساعة المبكرة كانا لوحدهما في هذا القفر المعزول.

من مكان مشرف فوق المراعي، شاهدت بيانكا القمة الخضراء التي سمتها جانين بالحاجز والتي تشرف على المزرعة، وقد أصبحت الآن على نفس المستوى الذي تسير فيه. وسألت:

www.elromancia.com

ـ ما اسم هذه التلة؟ قالت جانين إنها تدعى الحاجز.

ـ تقريباً.. اسمها «المغزل الحاجز» أما تلك التي تقابلها فاسمها «الحد الفاصل» وهناك حيث تتفرق الطريق.. طريق تذهب إلى داخل مقاطعة ميتوبا والأخرى إلى اونتاريو. وهناك بلدة عند قمة ذلك التل اسمها القمة الخضراء، لتمييزها عن بلدتنا التي تدعى القمة الحمراء، وبإمكانك رؤية قمة الفندق بوضوح من هنا.

تنفست بيانكا انفاساً عميقة.. رائحة المراعي تعبق في الهواء النقي.. من هنا تنخفض المنحدرات من على «الحد الفاصل» لتصبح تلالاً أقل ارتفاعاً حتى تصل الوادي حيث، كما قال لها بيتر، مكان يقال له رأس المثلث حيث تلتقي ثلاثة انهر صغيرة..

ـ حين تصبحين أكثر قدرة على الركوب سنذهب إلى آثار الكنيسة.. إنها أعمدة على شكل دائرة قرب النهر..

كان يلتقي فيها التجار قديماً لتبادل البضائع والقطعان. وفيها مكان شهير اسمه القرصان الأبيض.

ـ القرصان الأبيض؟ اسمه مثير للفضول.

ـ في الواقع إنه محفورة لمركب حفره مجهول فوق الصخور على حافة التل.. يصل المرء إليها متسلقاً بين الصخور ليجدها أمامه تطل من فوق رأسه، حتى انها أصبحت مع الأيام اسطورة.

وجهه كان يشع سعادة وهو يتحدث.. يبدو واضحاً أنه يحب المنطقة هذه.. المنطقة التي ولد فيها أسلافه وستولد ذريته من بعده.

حين عادا إلى تخوم المزرعة من جديد.. أحست بيانكا أنها عائدة من عالم آخر. ودخل بيتر إلى فناء الاسطبل ليقفز إلى

الأرض، وراقبها تترجل، فأتمت هذا بشكل جيد.. وقادت غريتا إلى حظيرتها لتبدأ في نزع السرج واللجام عنها، لكن الرباطات لم تنفك بسرعة فسارع بيتر لمساعدتها.. ولامست أصابعه يدها أكثر من مرة، فأحست بالخجل من المشاعر التي أحست بها.. لماذا تتأثر هكذا من بيتر وابن عمته؟

لسوء الحظ حطم بيتر الصورة الودودة التي رسمتها له، فبعد أن قال لها أن تذهب تستحم، وكانت في منتصف الطريق.. ناداها:

ـ اوه.. على فكرة آنسة روسل.. لقد اتفقت مع عمتي على أن تتناولي العشاء في جناحك.

إذن قد يتنازل أن يعطيها دروساً في الركوب لمصلحة جانين، لكن يجب أن لا يتركها تنسى مركزها، في غرفة الدرس.. وقالت ببرود:

ـ يناسبني هذا كثيراً سيد لينكولن.. لكنني فقط مندهشة..

استدارت لتلتقي عينان زرقاوان فولاذيتان:

ـ وما الذي يدهشك آنسة روسل.

ـ أن تتنازل في إعطائي دروس الركوب.. كنت أفضل أن لا تفعل.

بدا الغضب في عينيه:

ـ لا تكوني طفلة.. اعرف أنك تمتعت بالدرس.. وتعرفين تماماً الأسباب وراء تعليمك. سأنتظرك في نفس الوقت من صباح الغد.. وهذا أمر.

برقت عيناها متحدية:

www.elromancia.com

- وإذا رفضت الطاعة؟

- ستطيعي.. فقد لا يعجبك أن أجيء بنفسي لآخذك. قد تجدين هذا محرجاً لك.

- وهل ستستخدم القوة؟

لم يجب إجابة مباشرة:

- أنا السيد هنا. ولا أحد في المزرعة يتحداني، ويفلت من العقاب.

- لكنني امرأة:

- الرجل يساوي المرأة.

والتقط حفنة تبن ليدخل حظيرة اللورد.

رجل كريه!

وصلت غرفة الدرس دون أن تقابل أحد لتجد جانين في منتصف وجبة الصباح وقد ارتدت ملابسها بمساعدة بام.. وتذكرت أن واجبها الآن أن ترافق الطفلة إلى تمرين الركوب.

* * *

- ٣ -

الوهم الضائع

توجهت في اليوم التالي إلى درسها بارتباك. أمضيا نصف ساعة في الركوب حول حقل التدريب، وكن حاد الانتقاد لأدائها حتى أنها آمنت أنه غاضب منها.. أخيراً قال بجفاء:

- خذي غريتا إلى الاسطبل.. أنا خارج إلى المراعي.

- لن تذهب دون اللورد.

- إذن يجب أن تجبريها.. يا للسماء آنسة روسل.. يجب أن يكون لك بعض السلطة على ركوبتك الآن!

لم تقل المزيد، لكنها امضت خمس دقائق تدور في دوائر مع غريتا، لكن ما أن ابتعد وقع حوافر الجواد الآخر حتى أصبحت الفرسة مطيعة. وتمكنت بيانكا من إعادتها إلى الاسطبل.

عند الغداء أعلنت شيلا أنها بحاجة إلى شراء بعض الأشياء من قرية القمة الحمراء واقترحت أن تذهب بيانكا وجانين، بواسطة الباص المحلي لتشتريها. فأعلن بيتر أنه مضطر للذهاب إلى القرية

www.elromancia.com

بنفسه في عمل خاص وانه سيأخذهن معه.. لكن بيانكا قالت إنها تفضل الذهاب بالباص للمتعة ولا تريد أن تزعجه، فرد بيتر بأنه لن ينزعج، فهو سيذهب في السيارة على أي حال وبإمكانهما إنهاء ما تريدان من شراء وتجوال بينما ينهي عمله وهذا ما سيوفر الوقت والتعب عليهما. ثم نظر إليها نظرة حادة وكأنه يتحداها أن تتحدى أوامره.. وتنهدت جانين بارتياح، بينما خافت بيانكا أن يكون هناك حملة ما وراء رفقته هذه. وتدخل ميتشل:

- ستكون رحلتكما هذه سريعة.. ولا شيء مثير فيها. ولو كنت ذاهباً معكما لكنت جلت بك في المنطقة جيداً.

وضرب الطاولة بيده:

- لماذا بحق الله تسببت بسحب رخصة قيادتي؟ هذا غير عادل.

رد بيتر عليه بسخرية:

- إذا كنت تريد القيادة كالمجنون، فيجب أن تتوقع الأسوأ.. في الواقع نجوت برادع خفيف، نسبة للظروف.

أحست بيانكا بتوتر الجو بينهما. وبدا ميتشل غاضباً بينما بدت شيلا مستائة، وتابع بيتر النظر إلى ابن عمته بقسوة.. أخيراً قالت شيلا بحزم:

- لا داعي لذكر كل هذا مجدداً.. لقد انتهى أمره.

رد بيتر:

- لم أفعل هذا.. ميتشل بدأ الحديث.

واستدار إلى بيانكا:

- سيكون لديك وقت طويل لاستكشاف القرية فيما بعد. والآن لو عذرتني عمتي.. لدي مخابرة هاتفية أجريها. كن

مستعدات بعد نصف ساعة..

راقب ميتشل خروجه بعينين ملتهبتين. ثم قال بغضب:

- إنه لا يطوي كتاب مذكراته أبداً.. أتساءل حقاً ما إذا كان مرّ بمرحلة الصبا أبداً!

ردت أمه بحدة:

- وأنت كذلك لم تعد صبياً.. وقد آن أن تكبر. فيليب أصغر منك. لكنه يتصرف كإنسان مسؤول، ويعمل جاهداً ليعيل زوجته وابنه.

ضحك ميتشل ضحكة شيطانية:

- آه.. لكن لديه حافز امرأة جميلة تقوده. ثم إنه يصغرني فقط بنصف ساعة.. ومن المفترض أن يكون للتوائم صلة روحية. لكنني لم أحس بها يوماً لشقيقي العزيز.. ويبدو أننا خلقنا متضادين.. أمتلك هو الفضائل، وأنا أخذت الرذائل.

صاحت أمه:

- هراء.. مشكلتك أنك لا تحاول اصلاح نفسك.

نظر إلى أمه وكأنه يريد تحذيرها وقال:

- هذا الحديث سيعطي الكثير من المعلومات لبيانكا.. لكن لا تجزعي عزيزتي.. يوم ما سأحصل على زوجة، عندها سأصبح رجلاً جديداً.

سألته جانين ببراءة:

- من ستتزوج عمي ميتش؟

ابتسم لها بعذوبة:

- آه.. هذا سرّ.

www.elromancia.com

وحدّق متعمداً ببيانكا، التي وقفت لتخفي ارتباكها، وقالت:

- تعالي جان.. الأفضل أن نستعد.

كانتا جاهزتان ينتظران عند الباب حين جاء بيتر بالسيارة إليهما. وفتح الباب إلى المقعد الخلفي لتصعد جانين وبيانكا.. ثم صعد إلى المقود ووجه السيارة نحو الوادي.. فصاحت جانين:

- هذه ليست الطريق!

رد عليها بيتر:

- سنذهب في طريق طويلة كي تتمكن مربيتك من التفرج على مناظر أكثر. واليوم صافٍ والمناظر رائعة.

قاد السيارة عبر بطن الوادي في طريق ملتوية ملتفة. تصعد تارة عبر الشجر وتمتد المراعي الواسعة على الجانبين. بوصوله إلى أعلى القمة الحمراء أوقف السيارة بين عدد من السيارات تجمع أصحابها للتفرج على المنظر من الأعلى، وتناول المرطبات.. وقال لها:

- غزو العطلة قد بدأ.

كان في المكان نزل قديم الطراز، كلسي الحجر، له سقف قرميدي ورواق مسقوف.. ولم يكن المكان جميلاً ولا مؤثراً.

- يأتي السواح إلى هنا للتفرج على النزل الذي كان محطة للعربات قبل عهد السيارات والقطارات. ولا بد أنه كان مركز استراحة للمسافرين في كلا الاتجاهين.. ولطالما مشيت في هذه التلال.. لقد كانت مرتع طفولتي.

- وهل كنت تأتي لوحدك؟

- لا.. كان لي أخ.. مات.

- أوه.. أنا آسفة.

- قتل في رحلة إلى البرازيل، في أحد تلك الحوادث التي يجب أن لا تحدث.. كان منزلنا منزلاً للذكور فقط ولم أعرف أمي مطلقاً، فقد ماتت حين ولدت أخي.. ولم يتجاوز أبي محنة موت ابنه، فأصيب بانسداد في شرايين القلب.. لكن لماذا أضجرك بهذا الحديث...

ردت بلطف:

- أنت لا تضجرني..

وبدا لها في تلك اللحظة أن نوعاً من التعاطف وُلد بينهما.

فجأة أمسك بذراعها بقبضة ثانية، وأشار بيده الأخرى إلى السماء:

- انظري هناك نسراً من النوع الرمادي النادر.

وأنزل يده وكأنه وعى من هي، وقال بتحفظ:

- يجب أن نتابع الطريق، وإلا سأتأخر عن موعدي.

كانت القرية في الأصل مقراً للهنود الحمر، تحولت فيما بعد إلى مركز تجاري.. شقت فيها الطرقات ليسهل الوصول من كل أنحاء المنطقة إلى منابع المياه فيها.. وتمتعت بيانكا بالتجوال في طرقاتها المعبدة على الطريقة القديمة، بواسطة أحجار سوداء مربعة.. وبعد شراء ما طلبت منها شيلا، أخذت الصغيرة إلى الحديقة العامة.. وابتهجت بيانكا أن تلاحظ أن جانين أصبحت أكثر مرحاً وحيوية مما كانت منذ زمن طويل.. وعلت وجهها توريدة حمراء وبرقت عيناها الزرقاء بالسعادة.

حين حل موعد لقاء بيتر، وصلتا متأخرتان قليلاً عن الموعد

www.elromancia.com

المتفق.. وقالت له تشهق من الركض:

- آسفة.. كانت المسافة أبعد مما تصورت، كما أن جانين كانت تتمتع بنفسها كثيراً.

- لا داعي للعجلة.. لم تتأخري كثيراً في الواقع.. أنا انهيت عملي باكراً. أترغبين في شرب الشاي؟

حاولت كتم دهشتها لعرضه المفاجيء، وقالت:

- أجل.. أرجوك.

أخذهما إلى مقهى وطلب الشاي والبسكويت والحلوى.. حين وصل الشاي أشار إليها لتصبه.. وأخذت جانين تراقب العملية بوقار. وقالت بسعادة وهي تنتقي قطعة حلوى مغرية المظهر:

- وكأنكما أمي وأبي تماماً.

رد بيتر:

- لا شك أنني أشبه أباك.. لكن بيانكا لا تبدو أكبر من شقيقة لك.

لسماعها اسمها الأول منه احمر وجهها، وقالت باندفاع:

- لكنك لست كبيراً لهذا الحد.

ابتسم بسحر:

- أتظنين هذا. لكنني لا أؤمن باتحاد الربيع مع الخريف.. فلو تزوجت فتاة صغيرة، فبعد عشرين سنة..

وصمت.. ثم هز كتفيه.. فقالت بجرأة:

- إذن لو قررت الزواج، فستختار امرأة متوسطة العمر؟

- طبعاً.. هذا إذا تزوجت.. لكنني أفضل الحياة الهادئة.

وتناول قطعة بسكويت.

إذن فنظرته إلى مارجي، وإليها، نظرة أبويه.. لكنها ترفض فيه هذه الصورة.. إذن.. ما هو؟ إنه في الخامسة والثلاثين، ودون شك كبير كفاية ليكون أباها.. وتعقيدات السن كانت بادية على محياه.. ولا بد أنها تبدو في نظره صغيرة جداً، لو أنه يقارنها بجانين.. ولدهشتها أخذ يسألها عن عائلتها ومنزلها.

- قلت لي أن لك ثلاثة شقيقات، ألا أخوة لك؟

حين قالت لا.. قال انها خسرت علاقة جميلة جداً.. وبدت الرقة في عينيه، وعرفت أنه يفكر بأخيه الذي خسره. ثم بدا فجأة أنه غيّر رأيه عن متابعة الحديث، وطلب فنجان شاي آخر.

حين غادرا إلى السيارة سألها إذا كانت تحب أن تجلس إلى جانبه في المقدمة.. فقالت بدهشة:

- إذا.. لم تمانع جانين.

رد عليها:

- إذا مانعت فعليها أن تصبر وتتحمل.

فقالت جانين:

- أحب أن أركب في المقعد الأمامي.

- لا.. لن تفعلي أيتها السيدة الصغيرة.. أنت أكثر أماناً في الخلف.

وحملها ليضعها في المقعد الخلفي.

بكل تأكيد الجلوس في الخلف أكثر أماناً.. فقد وجدت قربها منه مقلقاً.. صحيح أنه لا يملك سحر ميتشل، لكن له سحره الخاص. ميتشل يثير احاسيسها، لكن بيتر هو النوع من الرجال الذي يوحي بالحب... بغضب كبحت أفكارها.. من الجنون أن

www.elromancia.com

تفكر هكذا.. فبيتر لا شك لن يفكر برومانسية حول مربية جانين، التي قال لها لتوه إنها أصغر من أن يهتم بها.

متذكرة هذا.. وما يحيط بها من ظروف، تمكنت من تجميع ما يكفي من كبت للرقة التي أحست بها نحوه.

في الصباح التالي، لم يعط بيتر درس الركوب لبيانكا بل جاء إلى حقل التدريب وهي تعطي التدريب لجانين على ظهر الجواد العجوز، الذي بالكاد يمكن إقناعه بالجري الخفيف.. وكان يجرّ بيده مهراً بنياً جميلاً، عليه عدته كاملة من الرسن حتى السرج. وأشار إليهما بالاقتراب منه.

وقال:

- هذا هدية عيد ميلادك جان.. أعرف أن الوقت مبكر لكن حان الوقت لإراحة العجوز نهائياً.

نظرت جانين برهبة إلى هديتها الجديدة.. وأعلنت دون امتنان:

- لا أريد مهراً.

- إنه ليس كالشرير.. بل هو مدرب لطيف تماماً..

وهو لك لوحدك.. ولا يوجد الكثير من الصغيرات لهن مهر لوحدهن.. ثم.. فكري كم ستبدين جميلة فوق ظهره.

وبمضض، اقتنعت جانين بتغيير مطيتها، وتعامل معها المهر بلطف، يستجيب لأقل إشارة أو لمسة لرسنه.. وهكذا بدأت جانين، التي تستطيع الركوب أكثر بكثير مما تدعي، بدأت تتصرف ببهجة وانطلاق.. وأسعدها أكثر العدّة الجديدة للمهر، إذا لم يعجبها المهر نفسه.

- إنه رائع عمي بيت.

- عظيم.. والآن بما أن الآنسة روسل أصبحت بارعة فستتمكنان من الخروج وحدكما إلى المراعي، فلا بد أنك زهقت من هذا الحقل الضيق.

نظرت جانين بارتياب إلى بيانكا وقالت لبيتر:

- أفضل الذهاب معك.

- لسوء الحظ لا وقت لدي. فلدي أشياء كثيرة أفعلها. لكنني سأخرج معكما في الغد.. سنخرج ثلاثتنا لأرى مدى مهارتك ومهارتها.

حين سمع ميتشل بالأمر خلال الغداء اقترح الانضمام إليهم لكن بيتر عارض هذا.

- لا صبر لك على مثل هذه الأمور.. ولا أريد لتلميذتاي أن تخافا، ولا أريدك الخروج معهما في المستقبل.. هل هذا مفهوم؟

كالعادة حين يفرض بيتر رأيه، يذعن ميتشل:

- أعرف دائماً متى أكون زائداً عن اللزوم.

صاح به بيتر:

- ماذا تعني بهذا؟

صدته شيلا:

- بيتر!

فتجاهلها وعيناه مثبتتان بنظرة مهلكة إلى ميتشل الذي سارع إلى القول بنعومة:

- لا شيء إطلاقاً.

- أنت لا تفهم ما تقول في أحيان كثيرة.

www.elromancia.com

كان الصباح مشرقاً جميلاً حين خرج الثلاثة تسبقهم روح النزهة.. جانين تمتطي مهرها الجديد بشجاعة، وبيانكا تحس بثقة غير عادية.. في المراعي، اختار بيتر فسحة ممتدة مستوية، حيث حث الجياد الثلاثة على خبب خفيف.. وصاحت جانين فرحة، وحين عادوا إلى السير الخفيف، نظرت إليها بيانكا متعجبة حين صاحت باهتياج:

- أنا أجري به..! أجري به دون أن أقع!

شجعها بيتر:

- عظيم أيتها الصغيرة.. سيكون لديك أخبار جيدة تقولينها لجدتك حين تعودي.

نظر وراءه مقطباً حين شاهد فارسين قادمين نحوهم.. إنهما ميتشل ومارجي لورانس.. وصاح ميتشل حين وصلا:

- آسف لمقاطعة زمرة تعليم الصغار. لكن مارجي أصرت على رؤيتك بإلحاح بيت. لذلك جئت بها نبحث عنك.

قال بيتر:

- حسناً.. سنعود.

ونظر إلى جانين، خائفاً من أن يثور المهر لوصول الجوادين الغريبين، وقال لميتشل:

- ارجع مع مارجي.. وسنلحق بكما.

لكن هذا لم يرق للآنسة لورانس، فبعد أن انطلقت قليلاً، شدت لجام فرسها لتؤخره وتلتقي بيتر.. وهكذا سارت جانين وبيانكا خلفها، وسار ميتشل إلى جانب «غريتا» فرسة بيانكا. ومال إليها يقول:

- كأننا نسير في جنازة.. دعي الطفلة تذهب معهما وتعالي معي.

- لا استطيع فعل هذا.

ونظرت باهتياج إلى جواد ميتشل الذي كان يعض على لجامه، ويشد بنفسه ليصل إلى مهر جانين. وقال ميتشل:

- أيجب أن تكوني حية الضمير هكذا..؟ تظاهري أن غريتا جمحت بك ولم تستطيعي إيقافها.. هيا بيانكا.

- سيد هوليز.. أرجوك أن تفعل ما طلبه السيد لينكولن منك، وتقدم إلى الأمام.

كما المرات السابقة، شاهدت نظرات الشيطان في عينيه ورفع يده إلى الأعلى.. وما إذا كان قد ضرب غريتا أم لا، أم أنها أجفلت من شيء، لم تعد بيانكا تدري، لكنها متأكدة أنها سمعت صوت يده على كفل الفرسة.. ولأن غريتا غير معتادة على هذه المعاملة، فقد أجفلت واندفعت بحدة أفقدت بيانكا توازنها فوقها، وقبل أن تستطيع السيطرة عليها انطلقت الفرسة بجري سريع. ولم تستطع بيانكا فعل شيء، فجلّ اهتمامها كان ينصب على البقاء متوازنة على ظهرها. وتمسكت بقوة بمقدمة سرجها. ولأنها انطلقت فوق أرض وعرة، تعثرت الفرسة بصخرة وانكفأت على جنبها، لحسن حظ بيانكا، قذفتها العثرة عن ظهر الفرسة، بعيداً عن حوافرها، لكن رأسها اصطدم بحجر كبير، ولم تعد تعي شيئاً.

وهي تستعيد وعيها ببطء، وعبر الضباب الذي كان يحيط بنظرها.. أحست بأصابع رقيقة دافئة تتلمس رأسها لتتفحص الإصابة.. فحاولت رؤية من هو.. لكن بصرها لم يركز جيداً.

www.elromancia.com

فعادت إلى الإغماض، تحس بدوار وغثيان.

استندت بارتياح إلى الكتف الذي كان يسندها، وأحست بخشونة الكنزة الصوفية على خدها.. فتحرك الرجل قليلاً ليريحها في وضعية أكثر راحة، وأحست، أو ظنت أنها أحست، بشفتيه على صدغها غير المصاب، وذبذبات صوته يقول بقلق:

- بيانكا.. هل أنت بخير؟ يا صغيرة..

ابتسمت.. هناك شخص واحد فقط يناديها هكذا.. وتأكدت برقة همسته المنخفضة.. هذا هو الحب، كما حلمت به. لطيف شفوق، لا شرس أو متصلب.

تحركت قليلاً لتضم نفسها إليه أكثر.. وتمتمت:

- ميتشل.. حبيبي..

الذراعان اللتان تحيطان بها اشتدتا قليلاً، ثم استرختا. وقال بيتر بخشونة وبرود:

- ميتشل ذهب ليجيء بالسيارة. سيصل عما قليل.

غمرتها الخيبة والذعر.. ما هذه الزلة الناقصة التي تفوهت بها؟ فتحت عينيها بسرعة، بالرغم من أن النور آلمها، أخذت تحدق حولها.. شاهدت أن غريتا وقفت على قوائمها.. لكن ما من أحد هناك ما عدا بيتر الراكع قربها، يضمها بين ذراعيه.. لكن لا يمكن لبيتر أن يتكلم بتلك اللهجة الرقيقة، ولا يمكن أن تحلم حتى أن تلامسها شفتاه.

لا بد أن هذا وهم مجنون، أثاره دماغ مرتج من الصدمة. لكنها استسلمت لخيالها، وتلفظت باسم ميتشل.. فماذا سيظن بهذا؟.. وأملت أن لا يكون ما تكلمت به واضحاً.. قالت بضعف تحاول

تبرير هفوتها:

- أنا.. ضائعة.. ماذا حدث؟

- وقعت غريتا، ورمتك.

شهقت:

- لكن.. جانين؟..

- أخذتها مارجي إلى المنزل.. إنها بخير.

أحست انه غاضب جداً. لكن ربما هذا يعود إلى وقع غريتا فلو أنها أذت قوائمها، فلن يعود لها فائدة.. لكن لماذا تصرفت الفرسة الهادئة هكذا؟ لم تستطع أن تتذكر.. وقالت معتذرة:

- لم استطع فعل شيء.. لسبب أجهله أجفلت غريتا.

- لا تقلقي نفسك بهذا الآن. كيف حال رأسك؟

أدركت أن رأسها يضج ألماً..

- إنه.. يؤلمني.

- لا يدهشني هذا.. لديك ورم في رأسك يبلغ مقدار بيضة حمام.. لكن لا أظن العظم مكسور.. وشكر لله.

تقدمت سيارة ترتجّ فوق الأرض الوعرة.. وقفز ليونيل من مقعد السائق، بينما خرجت مارجي وميتشل من الخلف. ووصلها صوت ميتشل، خفيف، غير مهتم:

- جئنا بصندوق الإسعافات الأولية.. وبعض الخشب للجبيرة.. ما مدى الإصابة؟

- أظنها أصابت رأسها فقط.. لكن لا يمكن أن نكون واثقين لقد استعادت وعيها الآن، وتمكنت من التركيز.. مع انها لا زالت مذهولة قليلاً.

elromancia

إذن لقد سمع ما همست به.. وجلست فجأة، تحاول إبعاد نفسها عن بيتر.. وقالت:

ـ أنا بخير..

لكن الأرض ارتفعت نحوها لتصدمها، فانهارت مجدداً بين ذراعيه.. فقال مؤنباً:

ـ أنت بكل تأكيد لست بخير.. استلقي واهدأي.. ولا تتكلمي.

وحملها بكل رقة ولطف ليضعها في المقعد الخلفي للسيارة، وجلست مارجي معها، بينما قاد ليونيل غريتا التي أخذت تعرج، وقاد بيتر السيارة بنفسه، وجلس ميتشل إلى جانبه.

حين وصلوا المنزل، أصرّ بيتر على حملها بنفسه إلى غرفتها ليضعها في فراشها.. وبقي ميتشل في الأسفل، يضحك ويمازح مارجي.. قلة اكتراثه آلمت بيانكا.. فهو لا يهتم البتة لما أصابها.

خلع بيتر حذاءها، ولفها باللحاف الريش بحنان الأم. وارجع شعرها الكثيف إلى الوراء.. ووضع رأسها على الوسادة. ودخلت السيدة داوسون تحمل فنجاناً من الشاي الساخن الشديد الحلاوة، فأخذ الفنجان ليقدمه إلى شفتي بيانكا كي تستطيع أن تشرب. وأبلغته المرأة أن الطبيب اتصل وسيحضر قريباً.

ـ جيد.. اخلعي عنها ثيابها، والبسيها ثياب النوم قبل وصوله.. سيعطيها ما يخفف عنها الألم.

حين غادر الغرفة أحست بأنها فقدت شيئاً من أمنها فبدأت تبكي بضعف.. وكأنما لم يعد لديها شيء تتمسك به سوى وهم ضائع.

ـ ٤ ـ

لا زلت طفلة!

نزلت بيانكا إلى الغداء في اليوم التالي.. رأسها كان لا يزال يؤلمها، كما تؤلمها عدة رضوض.. لكنها أحست بالضجر من عزلتها في غرفتها، واشتاقت لأن تعيد الاتصال بجانين.. كان الطبيب قد اقترح إجراء صورة أشعة لرأسها، لكنها رفضت وبما أنه كان متأكداً من سلامة جمجمتها، لم يصرّ كثيراً.

www.elromancia.com

جلست في مكانها المعتاد إلى جانب جانين، التي حيتها باشتياق:

- اوه.. ناني.. كم أنا سعيدة لأنك على ما يرام! ظننتك مُتِ!

وبخّتها جدتها:

- لا تكوني سخيفة.. قلت لك تكراراً أن الآنسة روسل ليست في خطر.. ولا داعي للاستمرار في قلقك.. اهدأي الآن وتابعي تناول الطعام.

ضغطت بيانكا ركبة الصغيرة سراً من تحت غطاء الطاولة

فابتسمت لها جانين بعذوبة، قبل أن تعاود الاهتمام بالطعام.

سرعان ما ابتعد الحديث عن بيانكا، وقال بيتر انه يدرس أمر صفقة مع سيد انكليزي عرض مبلغاً ضخماً لقاء جواد أصيل لديه.. ويفكر بأفضل وسيلة لتسليم الجواد. وقال ميتشل:

- شخصياً.. لن يرضيني سوى مواكبة الجواد بنفسي.. وإلا سأبقى قلقاً على الشحنة الثمينة.

- أفكر بهذا.

لكنه لم يلمح إلى ما هو قراره الأخير.

عادت بيانكا، بعد الغداء، مع جانين إلى جناحهما، حيث اجلستها إلى الطاولة مع رسوماتها.. وسرعان ما استغرقت الفتاة بالألوان المفرحة، ترسمها فوق قطعة كبيرة من الورق.

طرق أحدهم الباب، ودون دعوة دخل، وبذهول وجدت بيانكا أنه ميتشل، ومن المتفاهم عليه، أن غرفة الدرس محرمة عليه، وهي تعلم أن الخدم يقدمون التقارير عن تحركاته إلى ابن خاله.. ومع خنوع ميتشل، كان واضحاً لها أن سيطرة بيتر عليه مالية.

على أية حال، يبدو أن ميتشل اليوم قرر تحدي ابن خاله. تعابير وجهه كانت مزيجاً من التحدي والاعتذار.. وتساءلت عما إذا كان سيشرح طبيعة تصرفاته خلال رحلة الركوب لكنها لم تفكر بأمر يمكن أن يكون عذراً كافياً له.

رفعت جانين وجهها الملطخ بالألوان المائية وسألت عمها بجرأة:

- لماذا أتيت؟

أتيت لرؤية عظمة فنك.. يا إلهي جان، هذا جهد رائع في

www.elromancia.com

التعبير عن نفسك.. لكنني أتمنى أن لا يكون صورة حقيقية عن مشاعرك الداخلية.

- انتهيت منها.. فماذا سأفعل الآن؟

وضع ميتشل ورقة أخرى أمامها قائلاً:

- ارسمي انطباعاتك عن المزرعة خلال المطر.

نظرت إليه بحيرة:

- لا استطيع.

- الأمر سهل.. قطرات مطر كبيرة الكثير منها.. تهطل من السماء.

تركها ميتشل ليتجه إلى بيانكا الجالسة في مقعد بذراعين تخيط ثيابها قرب النار.. ومال من ورائها ليصبح وجهه لا يبعد أكثر من سنتمترات عن شعرها. حاولت الاستمرار في عملها، لكنها سرعان ما وضعته على حجرها. وقالت بحدة:

- أرجو أن تكون قد جئت لتعتذر.. مع انني لا أنوي أن أسامحك.

- ستحطمين قلبي.. لكن ماذا فعلت؟

- الم تضرب غريتا على كفلها..؟

- بيانكا.. أيمكن أن أفعل شيئاً كهذا؟

- لكنني رأيتك ترفع ذراعك..

اغمض عينيه بسرعة وأدار رأسه.. وظنت هذا اعتراف بالذنب. ثم تقدم أمامها وركع، ممسكاً بيديها.

- بيانكا، لديك ورم في رأسك، ولا أظنك تتذكرين جيداً ما حدث.. أقسم انني لم المس غريتا.. لا بد أن هناك طير قفز من

بين قوائمها واجفلها، ولا يمكنك تصور مشاعري وأنا أراقبك تقعين.

وقف على قدميه وضحك:

- صدقاً بيانكا أتتصوري أنني قد أسبب لك الأذى متعمداً..؟

نزلت جانين عن مقعدها وجاءت إلى بيانكا تلتصق بها وتنط إلى عمها بارتياب فقالت بيانكا:

- أظن من الأفضل أن تذهب الآن.

- حسناً.. لكن إذا استمريت في ابعادي عنك آنسة روسل، فلن أكون مسؤولاً عن النتائج.

- لا أذكر أنني أبعدت عني.. ولا أعرف ما تريده مني.. لا يمكن لنا أن نقيم.. أية علاقة.. تحت أنف السيد لينكولن.

- حقاً آنسة روسل! ما هذا الاقتراح.. وأمام طفلة..! هذا الإحباط المستمر يدفعني للجنون.. أنت أملي الوحيد في الحصول على ما أريد.. فإذا خذلتني..

- لن أفعل هذا، ثم إنك لم تتقدم مني بطلب ثابت.

- لكنني سأفعل، حين يكون لي أساس ثابت.. وأرجو أن توافقي عليه.. وإلا..

صوته المهدد، كان فيه نوع من الشر أفزع جانين فلفت ذراعيها حول بيانكا وصاحت:

- اذهب من هنا.. رجل شرير.. لن تخيف ناني!

نظر إليها ميتشل بدهشة:

- شكراً على كلماتك الرقيقة يا ابنة أخي الحلوة.

والتفت إلى بيانكا:

www.elromancia.com

- أرجوك أن تسامحيني على كل شيء.

- لا شيء أسامحك عليه.. وسأكون سعيدة في مساعدتك، إذا استطعت.

وبانهائه الكلام الذي كان يريد أن يقوله انسحب مودعاً:

- أراك فيما بعد! واضطرت بيانكا إلى اختراع مشاريع أخرى لتسلية جانين وإبعاد الخوف عن نفسها.. وجلست تفكر بأسباب زيارة ميتشل.

أخذ الطقس يتحسن بتقدم شهر أيار.. واستعادت غريتا عافيتها من لوي المفصل، وتمكنت بيانكا بالتالي من أخذ جانين كل صباح في نزهة. وجاء بيتر معهما عدة مرات ليتأكد من كفايتهما.. لكن تصرفاته نحوها استمرت باردة متباعدة.

وجاء عرض الربيع للخيل والماشية.. وكالوعد، أخذت بيانكا وجانين لحضوره.. وتشارك بيتر ومارجي في مسابقة القفز.. وعرض بيتر فرسة مع مهرها وزوجاً من الجياد الصغيرة.. وظهر ميتشل كذلك في السباق الذي جرى، لكن في اللحظة الأخيرة من السباق عرج جواده. ولعلم بيانكا أن بيتر مشغول بعرض الجياد للبيع، خشت وأملت معاً، أن يقصد إلى تكريس ما تبقى من وقته بعد خروجه من السباق لها. فلا هي ولا جانين حضرتا مثل هذا العرض من قبل وتوقعت أن يجول بهما فيه بكفاءة.

انتقل المعرض برمته إلى مكان آخر عند الحدود.. وقاد بيتر سيارته والجميع معه، خلف عربات الجياد ببطء شديد. لم تكن المسافة بعيدة إلى القمة الخضراء، مع أن تلالها كانت تبدو وكأنها الأرض المحروثة المتفاوتة الارتفاع في الأفق..

وصلوا باكراً ليوقف بيتر السيارة وسط عربات الجياد والشاحنات التي توصل المعروضات. كان هناك أبقار وخراف، وجياد توقع في أماكنها الصحيحة حول الحلبة.. خيم المقايضات والبيع كانت منصوبة، وصف طويل من الماكينات الزراعية معروضة أمام من يريد الشراء.

نظر ميتشل حوله بازدراء، وقال:

- حسناً.. سأذهب إلى البلدة.. فهذا السيرك ليس فيه شيء لي.

سألته شيلا بلهفة:

- ألن تعتني ببيانكا؟ لا شيء تفعله في البلدة.

- بل هناك عدة أماكن لهو.. وأنا واثق أن بيانكا تستطيع تدبر نفسها دون مرافق.

تنهدت شيلا وهو يبتعد:

- كل ما أرجوه أن لا يورط نفسه.. لقد خاب أمله حول جواده وهذا أمر مؤسف.

تركهم بيتر على الفور ليفرغ الحيوانات التي جاء بها.. وذهلت بيانكا للأعداد الهائلة من الناس التي جاءت من كل أنحاء المنطقة للمشاركة في العرض. كان بينهم أناس متأنقون فعلاً.. وسرعان ما تركتهما شيلا، بعد أن ناداها بعض الأصدقاء الارستقراطيين مثلها، وأصبحت بيانكا لوحدها مع جانين.. فزارتا أولاً خيمة عرض الكلاب.. ثم راقبتا الأبقار تعرض في الحلقة، وهي عملية دقيقة متعبة. فقد كانت الحيوانات تسير في دائرة مع أصحابها ثم تقف في الصف ليتفحصها الحكام. وأعلنت جانين أنها خائفة من

www.elromancia.com

الثيران الكبيرة، فابعدتها بيانكا لتشتري لها الآيس كريم. وعادتا في الوقت المناسب لمشاهدة بيتر وهو يعرض الفرسة ومهرها. لاحظت بيانكا كيف أنه يتعامل مع الرجال بثقة، وكيف انه يتميز عنهم بقامته الطويلة النحيلة.. وسمعت رجلاً قربها يقول:

ـ سيكسب لينكولن الجائزة.. ما من أحد يمكنه تأصيل الجياد مثله.

علقت إشارة النجاح الحمراء على جبهة الفرسة وما هي إلا لحظات حتى تقدمت مارجي لورانس، بكامل أناقتها نحوه تهنئه، فأحست بيانكا بطعنة غيرة سخيفة، مارجي تستطيع أن تقف إلى جانبه بكفاءة، فهذا عالمها.. مملكة الجياد والماشية، التي ليست هي فيها سوى متفرجة هاوية.

بدأت جانين بالقلق، وبما أن الوقت قارب الغداء، أعلنت أنها جائعة.. وأحبط بيد بيانكا، فشيلا لم تقل لها عن أي ترتيب لهذا، وعلى الطفلة أن تأكل شيئاً.. تقدمت إلى خيمة المرطبات تتساءل عما إذا كان الطعام هناك غالي الثمن. لكن يبدو أن الطعام هناك رخيص.. وعلى المرء الانتظار في صف طويل.. معظم الزوار كان قد جاء معه بسلال الطعام، وعادوا إلى سياراتهم ليتناولوه.

صاحت جانين:

ـ ها هو عمي بيت!

لحقت به بيانكا، تخشى أن تفقده بين الجموع ولا يراها. ووصلته مقطوعة النفس، وسرعان ما أمسك بيد جانين. وسأل مقطباً:

ـ أين السيدة هوليز؟

ردت بيانكا بأنها لم ترها منذ وصولهم. وقالت جانين:

ـ أنا جائعة!

ـ إذن يجب إطعامك. أظن جدتك انضمت إلى مجموعة الليدي اوليفيا.. تعاليا معي.

أخذهما إلى خيمة مخصصة لاستراحة العارضين ولجنة الحكام. حيث تناولوا وجبة طعام لائقة، وجلست بيانكا خجلة، وممتنة لتمكنها أخيراً من أراحة قدميها.

وتتابعت أصوات المعرض كما حدث المرة الأولى، وظهرت مارجي في مسابقة القفز النسائية لتحل الثانية، وجاء دور بيتر، وكان عرضه لا شائبة فيه وربح المباراة بجدارة.. وتقدمت الليدي أوليفيا لتقديم الجائزة له.

حين تجمعوا للعودة، ابدت شيلا ملاحظاتها الموبخة لبيتر بصوت مرتفع:

ـ توقعت منك الليدي أن تنضم إلينا للغداء. فأين ذهبت بيتر؟ أنت لم تقترب منا.

ـ تعرفين لغتي لا أطيق تلك المرأة.. حين تخوض موضوع الحسب والنسب تصبح مقرفة.. في الواقع انقذت جان والآنسة روسل اللتان كانتا تجوبان المعرض كحملين ضائعين. في وقت لم تدبري أمرهما مسبقاً.

ـ ظننتهما سيحصلان على شيء في مكان ما.. أتعني أنك قدمت إليهما الغداء؟

ـ شخص ما كان يجب أن يفعل هذا. أين ذلك الأحمق ميتشل؟

هبت شيلا دون وعي للدفاع عن ابنها.. ميتشل محبط.. بيتر

قاسٍ عليه.. الخ.. الخ..

فقال بيتر بحدة، إنه إذا لم يظهر في الحال، عليه أن يعود سيراً على الأقدام.. لكن سرعان ما ظهر ميتشل في حالة مزرية وفهمت ما كان يعنيه بيتر عن أنه أحمق.

- مرحباً!

ونظر إلى بيانكا:

- هل أمضيت وقتاً طيباً؟ أخبريني كل شيء.

وصعد إلى المقعد الخلفي.. فقال بيتر:

- آنسة روسل.. أرجو أن تجلسي في المقعد الأمامي معي.. عمتي اصعدي في الخلف واعتني بابنك. وخذي جانين معك.

صعدت شيلا على مضض في المقعد الخلفي.. فحين يتحدث بيتر بتلك اللهجة البائة الحادة.. لا أحد يجرؤ على عصيانه.

بوصولهم إلى المنزل، انتظرت بيانكا نزول جانين من السيارة ثم تمتمت شكرها لبيتر المتجهم وسارعت إلى الجناح لتحضر الصغيرة للنوم.

صباح أحد الأيام، وهي تدخل غرفتها لتغير ملابس الركوب جاءتها بام برسالة تقول أن السيد يريد رؤيتها في غرفة جلوس الصباح على الفور. فأنهت تغيير ثيابها بسرعة.

حياها بيتر بأدب وطلب أن تجلس. فجلست بخجل تذكر أول لقاء لهما في هذه الغرفة بالذات.. ولم يختليا لوحدهما فيها منذ تلك الليلة.

- أنا مضطر للسفر لمدة أسبوع.. فقد قررت أن آخذ البرنس بنفسي إلى انكلترا.

البرنس هذا هو الفحل الذي بيع إلى انكلترا، وهو ابن جواده اللورد، ولكل أبناء اللورد أسماء ملكية. وأكمل:

- بهذا فقط استطيع أن اطمئن أن الجواد لن يصاب بأذى. وطلب مني صاحبه الجديد أن أبقى معه بضعة أيام ريثما يعتاد على معرضه الجديد. وسأسافر بالباخرة وأعود بالطائرة.

هذه المعلومات تسببت في قلق بيانكا للحظات.. فقد بدأت تنظر إلى وجود بيتر كرادع لتصرفات ميتشل.. وأكمل:

- أنا مسرور جداً للتغيير الذي حدث لجانين. لقد أصبحت طفلة مختلفة منذ حللت معها. فتابعي عملك الرائع آنسة روسل.

- أنا مسرورة لأنني أرضيك.

لكنها كانت متأكدة أنها لم يستدعها إلى هنا للكلام عن جانين. ولاحظت أنه يجد صعوبة في التعبير عما يريد بالكلمات.. ولكراهيتها لمعاملته القاسية لها، رفضت مساعدته.. لكنه قال معترفاً:

- أنا كاره للسفر. فغيابي سيعني كمية مؤكدة من.. الاسترخاء في نظام المنزل. لكنني أرجو أن لا تغتري في أن تستغلي هذا.

كان يشير إلى ابن عمته، لكن بوجود عدم اكتراث ميتشل، بدا لها كلامه لا ضرورة له.. ودافعت عن نفسها:

- لا أدري سبباً لأن استغل غيابك.

- صحيح؟ سيحل ميتشل مكاني في غيابي.. وهذا ترتيب غير مرضي.. لكن أمه مصرّة أن اعطيه فرصة. متى تحمل مسؤولياته بجدية.. سيكون مشغولاً تماماً.

- أجل.. بالطبع.

ردد وكأنه يفكر بصوت مرتفع:

- يجب فعل شيء لهذا الشاب. يجب أن لا يسمح له أن يعطل حياته هنا.

- لماذا تبقيه هنا إذن؟

- هناك أسباب تستدعي أن يبقى هنا في الوقت للحاضر، حيث استطيع مراقبته.. لكنني آسف، فلن استطيع الإيضاح أكثر لن يكون هذا انصاف له.

كان رد زاد في فضولها.. وكان على رأس لسانها أن تسأله ما إذا كان قد اقترف جرماً. لكنها تراجعت.. ثم قال:

- واضح له، أنه يظن نفسه منجذباً إليك.

ارتفع اللون بسرعة إلى وجهها، وضمت يديها في حجرها. لا يمكن أن يكون بيتر أعمى في أن لا يلاحظ نظرات ميتشل إليها.

- لا يمكنني فعل شيء إزاء هذا.

- لا.. لكن ربما يجب أن أذكر أن الشبان الاشرار يغازلون أي أنثى أمامهم.

- وهل من المفترض أن أجد هذه الملاحظة مهمة؟

- قد تكون مهمة، إذا كان التجاذب متبادلاً.

ردت بحذر:

- ما الذي يجعلك تظن هذا؟

- حين القت بك غريتا إلى الأرض.. تلفظت بشيء يدل على انك مهتمة به.

تمتمت بخجل:

- أنا.. لم أكن في وعيي الكامل.

- صحيح؟

- لا يمكن أن تعتبرني مسؤولة عما قلت. كنت.. كنت.. أهذي.

سألها بوقاحة:

- هل تحبينه؟

اجتاحتها موجة سخط.. كيف يجرؤ على إصدار حكم كهذا عليها، بهذه البرودة والتجهم. وبعينين لامعتين بالتحدي، ولون زهري مجنون يغزو وجنتيها، بدت أكثر من حلوة وهي تصرخ متهورة:

- ولنفترض انني أحبه؟

قفز واقفاً، وتقدم إليها بخطوة واحدة، ليمسك بكتفيها ويشدها لتقف وتواجهه، وقال وعيناه شعلتان زرقاوان:

- وحق الله يا امرأة.. لو كنت..

انكمشت لرؤية تعابير وجهه القاسية، والتي عرفت أنها الغضب البارد، وأظهرت المها من قبضته. فصاحت:

- لا!.. لا أقصد أنني أحبه.. قلت فقط لنفترض..

لقد وعدتك.. ألم أفعل..؟ وعدتك أن لا أتورط معه.. ولا يمكن أن لا أفي بوعدي.

- وإذا كنت تكذبين؟

أجبرت نفسها أن تنظر إليه دون خوف:

- كنت أمزح.. أرجوك لا تبعدني عن هنا..

- لا أريد أن أفعل.. لكنك معرضة للخطر هنا، وهذه مسألة لا مزاح فيها.

www.elromancia.com

ـ سيد لينكولن.. أنت تؤلمني.

على الفور ترك كتفاها، وأنزل يديه إلى جانبيه، واستدار لينظر إلى خارج النافذة.

دون أن يستدير، قال بحذر وهدوء:

ـ سامحيني آنسة روسل.. لم أكن أقصد الخشونة.. لكنك أثرتني..

أنت تعرفين أن هذا ما كنت أخشاه في سماحي لك بالإقامة هنا. ويجب أن تفهمي أنني لن أستطيع التسامح بأي.. تقارب.. بينك وبين السيد هوليز.. وأكرر، لدي أسباب وجيهة للمعارضة.

كانت تعلم ما هي هذه الأسباب، ومرة أخرى احترقت أعصابها سخطاً.. فهي صغيرة، تربيتها ممتازة، ولا مبرر إطلاقاً للمعارضة ضدها هكذا، لكن ما ينقصها هو الثراء والمراكز. وهذا ما يجعلها غير مقبولة كزوجة لابن عمته أو حتى لنفسه.

لنفسه؟ لماذا خطرت لها هذه الفكرة؟ إذا كان ميتشل سهل المنال، فبيتر بكل تأكيد سيسبب لها الألم. لو أنه فقط يكون أكثر وديّة، كما كان حين اخذها معه إلى البلدة أو يوم المعرض. لكانت أفضت له بما يزعجها من ميتشل، ولما كانت أثارته.. فقد كانت مدفوعة برغبة لأن تظهر له، بالرغم من نظرته إليها على أنها أقل من امرأة، إلا أن ابن عمته لا ينظر إليها نفس النظرة.

أرادت أن تقول له: أنت تعني أنني لست المناسبة له. فليس لدي المال الذي تملكه زوجة أخيه مثلاً. لكنها لم تجرؤ.. وقالت بهدوء:

ـ أنا مصممة على تنفيذ اتفاقنا سيد لينكولن.. طالما أنا تحت سقف بيتك، من واجبي أن أطيع أوامرك. أنا أرغب في البقاء هنا لأجل جانين فقط، وتعرف هذا.. ثم، ألست تبالغ؟ شكوكك مبنية على أمر لا أعرفه، وقلته في وقت لم أكن واعية فيه. واعتقد أن اسم السيد هوليز ترسب في ذهني لأنه آخر من تحدث معي قبل الحادثة.

ـ فهمت!

ـ حسن اذن.. اعدك بأن أكون متحفظة عاقلة في غيابك. ويمكنك أن تثق بي.

ـ يبدو أنني مضطر. ولو كنت أكبر سناً، لما قلقت عليك.

ـ إذن سأبقى؟

وقف يحدق إليها:

ـ أجل.. طبعاً.

اطلقت نفس ارتياح طويل. إذن زال خطر الترحيل عنها.. ويجب أن تكون حذرة جداً بتعاملها مع ميتشل.

وأكمل بيتر كلامه:

ـ على أية حال، لن أتأخر كثيراً. وتذكري إذا واجهتك متاعب في غيابي، فلا ترددي أبداً في العودة إلى بلدتك.. بوجود جانين أم لا..

ـ قلت لك أن لا شيء سيحصل.

ـ عظيم.. هناك شيء آخر.. لا خروج في نزهات على الخيل في غيابي.

ـ لكن..

- هذا أمر.

- أليس قاسياً على جانين؟ لن تحصل على ما يكفي من تمرين.

- بإمكانك التنزه على الأقدام. فلا أريد المخاطرة بحوادث أخرى.

- حسن جداً سيد لينكولن. هل لي أن أذهب الآن؟

تردد قليلاً:

- يبدو أنك مستعجلة للذهاب.. ألا تتناولين معي فنجان قهوة.

- لا.. شكراً لك. وإذا أنهيت ما تريد قوله، سأعود إلى الجناح حيث مكاني المناسب في غرفة الدرس.

- كما تريدين، ألن تتمني لي رحلة سعيدة؟

- طبعاً، وآمل أن تصل والبرنس دون متاعب.

- سيصل.. وسترين، فأنا سأكون المسؤول عنه.

كم أنه واثق من نفسه.. الكريه.

- حسناً.. وداعاً.

- كوني فتاة طيبة بيانكا.

خرجت وأغلقت الباب وراءها بخفة.. هل وعى انه استخدم اسمها الأول؟ لم يفعل هذا منذ الحادثة.. لكنه لا زال يعتبرها طفلة!

إنه يصنفها مع جانين، ويظنها تماثلها تفهماً.. على الأقل.. ميتشل يعتبرها راشدة!

* * *

- ٥ -

غياب السلطان!

غادر بيتر المزرعة عند منتصف النهار، بعد أن وضع الجواد في مركبته التي سينقل فيها إلى القطار ثم إلى الباخرة..

وقت الغداء كان الجو مسترخياً.. وبدأ ميتشل يستخدم اسم بيانكا بحرية. وكانت عيناه حالمتان وهو يقول لها إن بإمكانها الآن تناول العشاء معه ومع أمه. وكان هذا كالترياق لجرح كرامتها. مع أنها كانت مرتابة بدوافعه.

لكنها رفضت الدعوة للعشاء التي أطلقتها شيلا.. تحس أنها ستكون أكثر امناً في جناحها.. وأصرت شيلا على أن تنزل، ولو بعد العشاء، لتشاهد التلفزيون.. ولم تعط رداً ملزماً. وتدخل ميتشل ليقول إنها لو لم تنزل، فسيصعد بنفسه لاحضارها.. فاعترضت جانين ببراءة:

- إنها مربيتي، وليست مربيتك.

- آخر ما احتاج إليه هو مربية.. ثم إنك لا تملكين الحق

www.elromancia.com

الحصري فيها.. على فكرة: هل تعلمون ان مارجي لورانس سترافقه إلى انكلترا؟

بدت الدهشة على شيلا.

- ولماذا؟

- لست أدري.. لكنني استطيع التخمين. إنها تريد الارتباط به.. في الواقع انها تجري وراءه بقوة وسرعة.. وتستحق أن تحصل عليه في النهاية.

هذه المعلومات زادت من ازدراء بيانكا لسيد المزرعة.. صحيح انها لا تهتم لو أن لديه مئة فتاة مثل مارجي، لكنها تكره النفاق الذي أظهره حول جمع الربيع بالخريف.. وبينما يكبح ابن عمته، يعتبر نفسه حرّ في فعل ما يهواه.

وكأن ميتشل خمّن ما يدور في رأسها فقال لأمه:

- ابتهجي يا أماه.. فأنا لا اعتمد على وراثة المزرعة وتعلمين هذا.

هذا كشف الباب على جزء من تساؤلاتها، لكنه أثار سؤالاً جديداً. إذا كان ميتشل لا يعتمد مالياً على بيتر.. فلماذا يبقى هنا؟

حين وضعت جانين في فراشها.. أحست بالوحدة، فنزلت لتتفرج على التلفزيون الذي كان يعرض فيلماً تدور أحداثه في البهاما وجزر الكاريبي.. وقال ميتشل:

- كم أود شراء ڤيلا هناك.. على الأقل ارتاح من قرب الحياة هنا.

هل سافرت من قبل إلى الخارج بيانكا؟

- لا.

- آه.. إذن هذا أمر يجب أن تضعيه نصب عينيك.. هناك أشعة الشمس الساطعة، والمياه الدافئة الزرقاء..

كم أحب أن أراك بثوب السباحة.

- أنا لم ارتد ثوب سباحة من قبل، ولا أعرف السباحة.. ولا إمكانية أمامي للسفر إلى الكاريبي.

- اوه.. لكنك ستسافري، وقريباً على الأرجح.. عندها سأسارع إلى إكمال تعليمك.

نظرت بسرعة إلى شيلا، التي رفعت رأسها لتقول:

- لن يتركك بيتر تغادر المزرعة ميتشل.. من المفترض بك أن تتدرب على ادارتها.. ثم إنني لا أظن بيتر جاد مع مارجي، فهي صغيرة جداً عليه.. وكم أتمنى أن تهتم أكثر بالمزرعة، فستصبح لك يوماً.

- آسف حبيبتي.. لكنني لا أشاركك هذه المشاعر..

بإمكان مارجي أن تحصل على كل شيء بكل ترحاب.. فهي مناسبة جداً له.. اسطبلان أصيلان.. إذا صح التعبير.. أما أنا، فلي أفكار أخرى.. ولن أتعلق بأحد بعد زواجي.. أنا وبيانكا سنتقاعد في أحد جزر الكاريبي، أما أنت فالأفضل أن تعيشي مع فيليب.

حبست بيانكا أنفاسها.. أيمكن حقاً أن يكون ميتشل جاداً بهذا؟ قالت له وقد ارتفع اللون إلى وجنتيها:

- أشياء كثيرة تأخذها كمسلّمات..

- أوليست استنتاجات سابقة لأوانها؟

لأول مرة منذ معرفتها، رأت شيلا متكدرة حقاً:

www.elromancia.com

ـ أنت سخيف ميتشل. تعرف جيداً انني أكره العيش مع فيليب. وهو لا يريدني، في وقت أنت تعرف أنك لن تقدر على العيش دوني.

ـ اليد على المكابح.. لكنني لن أحتاج إلى مكابح لوقت طويل يا أمي العزيزة. سأحصل على زوجة.. وهذا أمر مختلف تماماً.

لكن كلام شيلا أحبط روحه المعنوية. فلاذ إلى صمت متجهم. وانتهى الفيلم، وتمنت بيانكا لهما ليلة سعيدة. وفكرت أن كل ما قاله، إنما قاله بهدف ازعاج شيلا.. وكذلك بالنسبة لها.

في الصباح التالي، تطوعت السيدة داوسون بالقول أن ميتشل ذهب إلى البلدة بادعاء أن لديه عمل مع شخص من سكان الوادي. فقالت شيلا متعجبة:

ـ عمل..؟ ليس له عمل خارج المزرعة.

بالكاد تحدثت خلال الفطار، وكذلك الأمر عند الغداء. وبخجل نسبي نزلت بيانكا بعد العشاء لتجلس مع شيلا في غرفة الجلوس. لتجد أن ميتشل لم يعد بعد إلى المنزل، وأن أمه ساخطة، ولم تستطع التركيز لا على الحياكة ولا على برامج التلفزيون.

ـ أقول دائماً لبيتر أن الولد بحاجة للاسترخاء.. فقد كان معتاداً على حياة الصخب والاستهتار مع شلة من الأصدقاء.. قبل أن..

وصمتت، تنظر إلى بيانكا بقلق:

ـ قبل ماذا؟

ـ حسناً.. ظروف وضعت حداً لتلك الحياة.. حصل له نوع من الانهيار، وجيء به إلى هنا للراحة والهدوء.

واضح أن شيلا لم تكن تنوي الإيضاح أكثر عن غموض ماضي ميتشل. ودخلت بام لتستدعي شيلا إلى الهاتف.. وعادت من المكالمة والارتباك ظاهر عليها. وقالت رداً على سؤال بيانكا:

ـ أجل.. كانت مكالمة من ميتشل.. سيقضي ليلته عند آل لورانس، لماذا ذهب إلى هناك بحق الله؟

في الصباح التالي، وبيانكا تلاعب جانين الكرة.. صاحت جانين وهي تشير بيدها إلى بوابة الحديقة:

ـ انظري.. هذه سيارة مارجي.

استدارت بيانكا لتشاهد سيارة صغيرة تتوقف أمام الباب.. لكن مارجي في انكلترا.. وظهر ميتشل من داخل السيارة، فركضت جانين لتقابله، لكن شيلا سبقتها، راكضة خارج الباب. وسمعتها بيانكا تصيح:

ـ يا ولدي العزيز.. أين كنت.. وماذا تفعل في السيارة؟ تعلم أنك لا يمكن أن تقود.

ـ هذا أصبح من الماضي.. أنت وبيتر لم تكونا تعدان الأيام مثلي.

لقد حصلت على رخصة جديدة..! وعدت إلى وراء المقود ثانية.

شهقت شيلا:

ـ لكن السيارة...

ـ اوه.. إنها لمارجي.. وقالت إنها ستعيرني إياها وهي غائبة. وأمضيت الليل عند أهلها لآخذها.. إنهم قوم لطفاء.. أظنهم يظنون انني أيضاً أحد أصدقاء ابنتهم.

رفعت شيلا حاجبيها:

- لا بد أنها مجنونة لاعطاءك سيارتها.

- أبداً.. إنها شابة بعيدة النظر.. لكن لا تدعينا نفسد يوماً رائعاً كهذا.. سأخرجكم جميعاً في نزهة.. إلى أين تودون الذهاب؟

- وهل ستكون حذراً ميتشل؟

- لا تقلقي.. الكثير يعتمد على نجاحي في الابتعاد عن المخاطرة.. هيا اذهبن للتحضر للخروج.

حين انتهت بيانكا من تغيير ملابسها وملابس جانين نزلت لتجد شيلا جاهزة.. وحضرت السيدة داوسون لهم طعام نزهة، وضعه ميتشل في الصندوق.. خلال الطريق شرحت شيلا لبيانكا أن هذا اليوم يُعد يوم عطلة في المنطقة بسبب تقليد قديم، يخرج فيه الجميع بأفضل ما لديهم من ملابس. يقضون نهارهم قرب البحيرات والأنهار. ولا بد أن لهذه التقاليد عادات قديمة راسخة، ربما منذ أيام الهنود، حيث كانوا يحتفلون بعيد آلهة الماء والربيع، والأرواح الصبية.. وقاطعها ميتشل:

- كان الناس في مختلف أنحاء المنطقة يقدمون ضحايا شكر لعطية الماء والربيع، ومن المفضل الفتيات العذارى والصغارى، يرمونهن في البحيرات والأنهر.. لذلك، تعرفان الآن لماذا نأخذكما معنا.

سألته جانين بارتياب:

- أتمزح عمي ميتش؟

ردت بيانكا بسرعة:

- طبعاً هو يمزح.. على كل الأحوال لم يعد أحد يفعل هذا.. فنحن نتبع تعاليم الدين الآن.

قالت شيلا:

- بالضبط.. بعد أيام الوثنية الشكر لله يأتي عبر إقامة الصلوات، خاصة أمام الينابيع والبحيرات. مع إنني لا أعرف كيف تطورت الأمور هكذا.

قال ميتشل:

- لأن الناس اكتشفت أن هذه المراسم تجتذب السواح. والقرى التي لم تعد تحتفل بها، تنبشها من جديد.

كانت الرحلة طويلة إلى البحيرة.. ووصلوا بعد انتهاء مراسم تبريك الينابيع.. وقال ميتشل:

- سنذهب إلى الخليج. هناك مكان مخصص للنزهات، وأريد أن ترى بيانكا آثار القصر هناك.

فسألت:

- أهو مكان مميز؟

- فيه رسالة لك ولي.

ورفض الشرح أكثر، بينما احتجت شيلا أن المسافة لا زالت بعيدة ولقد قطعوا ما يكفي من مسافات.

امتدت الطريق فوق المرتفعات، وسرعان ما اعتادت بيانكا على طبيعة الأرض. جدران أحجارها رمادية، ومبان بحجر مماثل، حقول خضراء.. مراعٍ بنية وخضراء ستنقلب عما قريب إلى قرمزية وحمراء وصفراء حين تزهر، الأخضر والرمادي هما اللونان السائدان هنا. وأحياناً كثيرة كانت السماء تماثل في لونها لون الأرض.

تناولوا الغداء متأخرين، ليس في منطقة النزهة، بل في حقل أبعد منها يرتفع نحو تلة صغيرة.. وبانتهاء وجبة الطعام، أعادوا توضيب ما تبقى.. وساروا نحو القصر..

القصر كان بناء من العصور الأولى لاستعمار كندا. له بروج وجدران فيها فتحات لإطلاق النار.. فقد كان يوماً حصناً متقدماً لردع الهنود، وتأمين قوافل التجارة.. لكنه الآن أصبح مهجوراً.

بما أن الوقت كان مبكراً على موسم السباحة، واليوم في منتصف الأسبوع.. فقد كان المكان لهم لوحدهم تقريباً. وتحرك ميتشل نافذ الصبر من فراغ القصر وقال:

- فلنذهب ونتفرج على الحدائق.

وبدا متوتراً قلقاً.. لكن بيانكا كانت قد اعتادت على طباعه الغريبة، فلم تعد تعيرها أي اهتمام.. الحدائق هناك كانت مشهورة بورودها.. كانت مرتبة في تراسات متدرجة تنزل من سفح التلة.. وهناك أمسك ميتشل بمرفقها:

- تعالي معي.

- لا استطيع ترك جانين.

- هراء.. ستعنى بها أمي.

وأخذها بإلحاح إلى أعلى تراس، حيث أطلت من هناك على ما تبقى من الحدائق في الأسفل تمكنت من مشاهدة الجسد الحجري المخصص للجياد القديم الطراز.. ثم قادها نحو منزل صغير حيث وجدت نفسها أمام باب خشبي ضخم مهيب، فنظرت بيانكا إليه بدهشة، لقد أصبحا هناك معزولان تماماً عن العالم.

- لم جئت بي إلى هنا؟

أشار إلى سلم ضيق يوصل إلى الأسفل:

- من هنا، كانت تتسلل الفتيات للقاء أحبتهن، عبر الحدائق باتجاه النهر. ويبدو لي أن الحق كان معهن.. ففي ظلم تلك الأيام للنساء، لم يعد أمامهن سوى الهرب.. فما رأيك بالهرب؟

- أنت تمزح طبعاً.

- أو.. لا أنا لا أمزح.. فالزواج شأن جدي لا مزاح فيه. ولا شك أنك أدركت أنني.. أود الزواج منك بيانكا.

تكلم دون عاطفة، وأدار وجهه عنها، فحدقت بيانكا به مذهولة. كانت تتوقع مثل هذا الإعلان.. لكن الطلب كان عديم النكهة.. وبكل تأكيد كان يستطيع، ومن بين كل الناس، أن يكون أكثر جدية وعاطفية في طلبه؟

سألته دون عاطفة:

- لماذا تريد الزواج مني ميتشل؟

- لأنني.. أوه.. للأسباب المعتادة.. لماذا يريد الرجل الزواج بامرأة؟ أنت لا ترغبين في البقاء مربية طوال عمرك؟

- لا.. لكنني لن أتزوج لمجرد أن أعيش.

ضحك:

- أتريدين تلك الزركشة الكاذبة؟ كما أنني لا أتصرف كعادتي.. الواقع بيانكا، أن لا خبرة لي في طلبات الاتحاد القانوني.. وقار المناسبة يقيد أسلوبي.

- هذا غير مناسب.. لو أن.. قلبك يتكلم.

وبدا عليه الخجل:

- أنت طيبة كثيراً بالنسبة لي.. وأحذرك منذ الآن.. سأكون

www.elromancia.com

زوجاً عاطلاً.. ويجب أن لا تتزوجيني.

لأول مرة كان يتكلم بجد كامل.. وتأثرت بيانكا بصدقه وتواضعه أكثر مما لو بالغ في زركشة طلبه. وأجابت:

- أليس هذا عائد لي لأحكم عليه؟

- تحكمين؟ يا للمسكينة البريئة.. زواجي منك، كمن يلتقط زنبقة ويرميها في الوحل.

- أنت تتكلم بحماقات.. فأنا لست زنبقة.. بل فتاة عادية بمشاعر عادية.

- يمكن أن نضع هذا قيد الاختبار، فهو أبلغ حكماً من الكلام.

وأخذها بين ذراعيه، وهي تلين في أحضانه، قفز شوقه، وضمها إليه أكثر. واستجاب دم الشباب فيها، فازدادت لهفته.. لكن انذاراً غامضاً استيقظ فيها، فقاومت للخلاص. ولم يتركها. فمقاومتها كانت تثيره أكثر، فاشتد عناقه لها وأصبح ملحاً أكثر.

حين تركها أخيراً، كانت مضطرة لأن تستند إلى حافة الباب لتدعم نفسها.. مصدومة ومرتبكة بالمشاعر التي كانت تثور داخلها.. لكن ما أذهلها أكثر كان أنها تفكر بردة فعلها مع بيتر أكثر من ميتشل.. الذي أعادها إلى الإحساس بوجوده بجفلة حين قال:

- تجاوبك معي كان عظيماً.. لكنك كالفأرة.. دائماً خائفة.

- أنا.. فعلاً خائفة.. أترى.. أنا لم أحب قبل الآن.

- وتحبيني الآن؟

- ولماذا أرغب في الزواج منك إذن؟

لكن الريبة صدمتها.. هل تحبه فعلاً، أتريد حقاً أن تتزوج منه؟ إنه يجذبها بفتنته، بين ذراعيه استسلمت للأحاسيس التي أثارها فيها، لكن، ومع أنها صغيرة، كانت تعرف أن هذا لا يكفي.. وهناك أوقات كانت جرأته تفزعها. وبدأت تحس أنها وقعت في فخ من الرغبة السوداء، وعليها أن تثور ضد هذا الأسد.

وسمعته يقول:

- إذن، أنت لن تعارضي الآن في الهرب معي؟

نظرت إليه مشدوهة، تحس أن اصبعا من ثلج يلامس قلبها:

- ماذا تعني؟

- أعني أن غياب السلطان هو فرصتنا.. وسنهرب إلى أحد جزر البهاما.. وستعطينا أمي المال. وسنقوم بإجراءات الزواج هناك قبل أن يجدنا بيتر.

- لا!.. لا استطيع فعل هذا.. إذا كنت حقاً تحبني، وإذا قررنا الزواج، يجب أن نذهب معاً إليه لنقول له.. كلانا فوق السن القانوني، ولا يمكنه منعنا. أما الهرب فهو جبن لا ضرورة له.

هذه المعارضة غير المتوقعة جعله يسخط، وقال:

- لكن طريقتي رومانسية أكثر.. ألا ترغبين في السفر إلى الكاريبي؟ فكري بالشمس والبحر وأن نكون معاً لوحدنا.

- قد تغير رأيك في الزواج مني متى وصلنا إلى هناك.

- حبيبتي.. شرحت لك أن الزواج هو هدفي الرئيسي. ألا تثقين بي؟

فجأة أحست بالخوف من بقائها لوحدها معه.. فقالت:

www.elromancia.com

- لن أسمح أن تدفعني إلى هرب مجنون. ولا إلى خطبة مستعجلة.. فالزواج شأن مهم.. ودائم.

- ولماذا لا يدوم زواجنا، ثم من يستطيع معرفة المستقبل؟ توقفي عن السذاجة، واستسلمي لمباهج الحياة معي. صدقيني.. احتاج إليك.. كزوجة لي.

لف ذراعه حولها، فارتجفت وتراجعت من قبضته:

- لن أستطيع ترك جانين هكذا.

- تلك الطفلة! وما شأنك بها؟ أنت تتحججين.. أيمكن أن تفكري ببيتر؟ هل أثار اهتمامه بك يوم الحادثة.

- لا تكن سخيفاً.

- إذا فكرت بهذا فأنت تضيعين وقتك. إذا كان بيتر يميل إلى أي شيء أنثوي، فهو يميل إلى مارجي. أما أنت، فهو لا ينظر إليك كامرأة حتى.

- أعرف هذا.

شحب وجهها فجأة وقد خطر ببالها أن لو كان بيتر الذي يحاورها الآن، لما أبدت مثل هذه المعارضة.. وهذه طبعاً فكرة سخيفة. كمن يتوقع من رجل فوق القمر أن يطلبها لتهرب معه.

سمعت ميتشل يقول:

- أكره الانتظار بيانكا.. أريد تسوية هذا الأمر الآن وفوراً. وإذا ابقيتني معلقاً، قد تخسريني. فهناك فتيات أخريات لن يترددن مطلقاً.

صاحت به ساخطة:

- اذن اذهب وخذ لك واحدة منهن.

- يا إلهي ظننتك تحبيني..

- أنا لست واثقة من هذا.

- أتعني أنك كنت تتلاعبين معي؟

- لا.. لكن..

- يا للجحيم، ألا تعرفن أيتها النساء ما يجب أن تقررن؟

تركها ليتزل السلالم الحجرية إلى حيث كانت شيلا تجلس على مرجة خضراء. ولحقته بيانكا على مضض.. وراقبت شيلا تقدمهما بحاجبين مرتفعين.. ثم سألت:

- ألم تتمكنا من تسوية الأمر بينكما؟

رد ميتشل باقتضاب:

- لسوء الحظ لا.. فهي قلقة من النتائج، وترفض طريقتي.

إذن كانت شيلا تعرف سر ابنها.. وتساءلت بيانكا بقلق ما إذا كان هناك سر خفي وراء طلبه الزواج منها. وقالت شيلا لها:

- لا تتلاعبي بسعادتك.. فقد تتسلل بسهولة من بين اصابعك.

خذي ما تستطيعي بينما أنت قادرة على الأخذ.

وصول جانين من حيث كانت تلعب انقذ بيانكا من الرد..

وخرجوا من الحديقة القديمة، بكل ما فيها من رومانسية فشلت عن دفع بيانكا لاتخاذ القرار الذي أراده ميتشل.. بوصولهما إلى البوابة، التفتت بيانكا إلى الممر السري الذي قال لها ميتشل أن الفتيات كن يستخدمنه للهرب مع من يحببنه نحو السعادة وتنهدت.

في طريق العودة تحدث ميتشل مع أمه، متجاهلاً وجود بيانكا معه... بينما نامت جانين ورأسها على حجر بيانكا.

www.elromancia.com

وفكرت أن من الأفضل لها، أن تعود إلى بلدتها، بمبادرة منها دون انتظار أن تطرد.

بعيداً عن المزرعة الحمراء.. وتأثيراتها المتضاربة، ستكون أكثر قدرة على أن تصل إلى قرار.. وإذا لم يكن القرار مناسباً لميتشل، سيكون أسهل عليها أن تبلغه عبر البريد، بدلاً من مواجهة غضبه العارم.. الذي يجعلها مجرد التفكير فيه ترتجف.

* * *

www.elromancia.com

- ٦ -

مواجهة الحقيقة

بعد يومين من الاحداث مفعمة بالتوتر العاطفي، جائت شيلا بعد الفطار لتقول لبيانكا انها وابنها ذاهبان الى البلدة للتبضع وسألتها ما اذا كانت تريد شيئاً.. دون الاشارة الى ما حدث منذ يومين.

بعد خروجهما، نزلت بيانكا وجانين الى الطابق السفلى استعداداً للعب في الحديقة.. ما ان وصلتا اسفل السلم، حتى رن الهاتف.. فترددت بيانكا، لكنها تعلم ان السيدة داوسون لا ترد على الهاتف لانها تعتبره من عمل الشيطان.. ورن الجرس ثانية، وظهرت السيدة داوسون لتطلب منها ان ترد متحججة:

- سمعي لم يعد على ما يرام.

رفعت بيانكا السماعة، فسمعت صوت بيتر.. وكادت ترمي السماعة من يدها.. وقالت له ان عمته وابنها ليسا هنا وانهما خرجا في السيارة.. فسأل بدهشة:

- سيارة؟

- اجل لقد استعار سيارة.

- استعار؟ اوه يا الهي! كم أنا احمق كثير النسيان! بكل تأكيد حان وقت عودتي.. سأصل بعد غد.. اكنت فتاة طيبة؟

اجبرت نفسها على التأكيد بالايجاب فأكمل:

- عظيم! وداعاً الآن بيانكا... اراك قريباً.

بدا لها انه في نفسية ممتازة، وكلامه معها لم يكن رسمياً. وضمت السماعة الى صدرها ترتجف وقد غمرها الاحساس بالذنب. صوته السريع الباتر، أعاد صورته بقوة وحدة أمامها... وسيكون من الصعب جداً ان تقول له انها ستتركه.

عادت شيلا الى الهجوم في الصباح التالي بطريقة مباشرة. فقد صعدت الى غرفة الدرس، وابعدت جانين في ادعاء مزيف الى المطبخ. وما ان خرجت حتى قالت:

- انا احبذ زواجك من ابني لانك فتاة عاقلة وسيكون لك تأثير جيد عليه. كنت دائماً خائفة من أن يتورط مع فاسقة متهورة، تبدد له ماله. وسيكون مرتاحاً مالياً، ولو انه لن يبلغ الثراء.

احمر وجه بيانكا.. فهي لم تفكر بالناحية المادية كثيراً:

- شكراً لك على هذه المعلومات. لكن اليس المهم أكثر أن نكون متناسبين، ونحب بعضنا؟

- اوه.. الحب.. انه واحدة من مقومات الزواج، وليس الاهم... ميتشل عنيد، وعاطفي.. ومع أنني لا اوافق على فكرة الهرب، فإن هذا على الاقل سيواجه بيتر بأمر واقع. فلابن اخي مبادىء اخلاقية رفيعة.. ولا يمكن ان يسمح بأن تعيش في الخطيئة.

صاحت بيانكا ووجهها يكاد يحترق:

- لا مجال لهذا اطلاقاً.. ثم، ما دخل السيد لينكولن بكل هذا؟

- انه رأس العائلة... وبما أنك ترفضين الهرب، اقترح ما يلي.. ما ان يعود بيتر، حتى تقولي له ان عليك العودة الى المنزل فوراً. ثم يلحق بك ميتشل ويتعرف على اهلك وما الى ذلك.. وسيوافقون دون شك على الزواج. وهذا لصالحك بيانكا..

- أوه.. توقفي عن هذا.. فنحن لم نبلغ نصف هذه المرحلة بعد. ارتفع حاجبا شيلا.. وقالت بتشدق:

- يا عزيزتي.. لقد اعطيتني الانطباع انكما تقدمتما اكثر من هذا. لماذا تتراجعين الآن؟ على اية حال سيكون الوضع صعبا بعد عودة بيتر.. ومن الافضل ان تعودي الى درياك ويلحق بك ميتشل.. بهذا تستطيعي اتخاذ القرار دون تأثيرات او تدخل بيتر، هو من يكدرك.. اليس كذلك؟

اعترفت لنفسها ان هذا صحيح. لكن ليس كما تظن السيدة هوليز... وهي على اتي حال تحتاج الى وقت لتختبر مشاعرها. فوافقت راغبة على العودة الى بلدتها، شريطة ان لا يلحق ميتشل بها فوراً الى ان تكون واثقة من مشاعرها.

عادت جانين من مهمتها وانسحبت جدتها، تاركة بيانكا مشوشة الفكر. ستعود الى منزلها لتضع مشاكلها امام ابيها، فهو الحكيم البعيد عن مشاغل الدنيا والشديد التساهل. وسيعطيها النصيحة، والواجهة التي تسعى اليها، وما ان تتحرر، من تأثير ميتشل، فستتمكن من أن تراه بوضوح وترى الدرجة التي

www.elromancia.com

سيساعدها بعدها عنه في قرارها بالنسبة للترابط معه.

وكما الليلة السابقة، لم تنزل لتناول العشاء تلك الامسية... وما ان اخذ النور يتلاشى، حتى اقتحم ميتشل عليها غرفة الدرس.. وقال:

- لماذا تتجنبيني؟ هذه آخر فرصة لنا معاً قبل عودة السلطان... الا تحبيني ابداً.؟

- أنا.. لست أدري...

شدها من مقعدها ليحيطها بذراعيه، واخذ يداعبها، لكنها فشلت في ان تتجاوب معه، أبعد رأسه الى الوراء ليحدق في وجهها الشاحب متأملاً. وسألها بلهجة تهديد:

- هل ستتخلي عني؟

- اوه ميتشل.. احس أنني سأغرق في البحر... والسيد لينكولن سيعود في الغد.. وأنا واثقة انه سيشك..

- لولا لم تكوني حمقاء لكنا الآن في ميامي بانتظار مركب ينقلنا الى جزيرة نائية، ليعود بيتر ليجد أن العصفورين طارا. لكن لا تخافي.. قولي له فقط انك مضطرة للعودة الى بلدتك. وما ان تبتعدي عن هنا، ستتمكني من نسيانه. واظن ان هناك طريقة واحدة ليست هذه المسألة.. وأنا لم اعد استطيع الانتظار.

اصيبت بالصدمة وهو يحاول ضمها مجدداً.. وصاحت:

- لا!

ثم تذكرت جانين:

- جانين نائمة ولا يجب ان نزعجها.

- تلك الطفلة اللعينة دائماً ملجأك. واشكر الله انك

ستتركينها اخيراً.

ثورة مشاعر اجتاحت بيانكا كان لها قوة اثارة الطريق. انها لم تحب ميتشل يوماً.. صحيح أنه سحرها، لكنها الآن اصبحت تخافه. بعد هذا الكلام الحاد، تمنى لها ليلة طيبة وتركها. فجلست تحدق بالظلام المعتمة في الزوايا التي بدت لها مخيفة.. يجب ان تعود الى بلدتها فوراً.. فهي لن تجرؤ على الاقامة اكثر هنا.

عاد بيتر بعد ظهر اليوم التالي.. كانت تتناول الشاى مع جانين في غرفة جلوسهما حين سمعتا صوته سارعت جانين الى النافذة، وبانضمام بيانكا اليها، شاهدته يسير مع مارجي وسمعته يقول لها:

- الم تتسرعي من إعادة ميتشل سيارتك؟

- انها مؤمنة.. ولست بحاجة لها وأنا غائبة. وكان لدى فكرة أنه يود أن يؤثر على مربيتكم الصغيرة.

تراجعت بيانكا الى الخلف بسرعة، بينما رجتها جانين ان تسمح لها بالنزول للقاءه. فسمحت لها، ورأتها تقطع المرجة لترمي نفسها عليه، فتابع سيره والطفلة بينه وبين مارجي. اعاد جانين الى غرفة الدرس بعدوقت ما، واخذ قلب بيانكا يخفق بسرعة لرؤيته. حياها بلطف، ثم اخذ يبحثا امر حفلة عيد ميلاد جانين، التي كانت تود الذهاب في نزهة الى حدائق البلدة، بينما اقترح بيتر التخييم قرب البحيرات كنزهة اكثر طموحاً. وقال لها:

- سآخذك في نزهة على قارب وندخل المغارة هناك.

- لكن اليست مظلمة؟

- لا انها مضاءة بالكهرباء ليلاً نهاراً.

- وناني ستأتي معنا؟

ابتسم:

- طبعا.. وسنشتري لها قطعة حجر ازرق.. انه نوع من المعادن كثير الوجود في قاع البحيرة...

ردت بيانكا بضعف:

- شكراً لك.

لكنها احست بالغثيان. فهو لن يشتري لها الحجر الازرق فحين سيأخذ جانين الى البحيرة، ستكون هي بعيدة جداً.

- تبدين شاحبة. بيانكا... هل تؤثر عليك الضربة على رأسك؟ ام أنها بخير!

- اوه أجل.. بخير.. لقد نسيت امرها.

- ربما بقيت في المنزل طويلاً.. سنخرج على ظهور الجياد الى المراعي غداً في الصباح. هذا سيعيد لك نشاطك.

بدا لها وكأنها تعود الى حقبة اخرى من الزمن وهي ترتدي ملابس الركوب في الصباح التالي، وتساعد جانين لترتدي ملابسها.. واحست بالانتعاش للعودة الى ظهر فرشتها وان تحس بغريتا تجري بقوة تحتها، والريح النقية تلفح وجهها.. وان يكون بيتر الى جانبها... سحر المراعي، وعفريت صغير طائش استحوذا عليها، فحثت غريتا على الجري، ثم اطلقت لها العنان. وكادت تصرخ فرحاً من مشاعر السعادة. حين وصلت الى جوار حجري منخفض، قفزت غريتا فوقه بخفة وسمعت وقع حوافر ورائها، وصاح بيتر بها أن تقف... للحظات خفضت انطلاق غريتا، ثم اوقفتها، ليقترب بيتر منها ويقول موبخاً:

- انت لا تشاركين في سباق.

ثم ضحك:

- انت تركبين كامرأة الامازون الاسطورية. حين قفزت فوق الجدار كاد قلبي ينخلع. لكن القفزة كانت رائعة. وقد افكر بك في المعارض القادمة... هل ترغبين في ركوب احد جيادي في السباق؟

صاحت، ناسية انها ستسافر:

- سأحب هذا كثيراً.

- مسكينة جانين لقد تركناها بعيداً.. جوادها قصير على مواكبة الجياد الكبيرة.

قطب وهو ينظر اليها ثم اكمل، يمد يده ليضعها على يديها:

- لكن.. انت بيانكا.. ما الذي يقلقك؟ اخبرني، وسأرى اذا كنت استطيع اصلاح الامور لك.

نظرت الى يديه السمراوتين الدافئتين من عينين دامعتين.. كان في نفسها شوق لأن ترمي بنفسها بين ذراعيه وتبكي تبوح بكل ما يشغلها على صدره.. لكنها كانت تعرف انها لو اخبرته، فيصبح وجهه البشوش الآن، بصلابة الجلمود، وتصبح عيناه كالثلج... وقالت:

- لا شيء أبداً.

- وصلت جانين اليهما وفي عينيها اتهام:

هربتما وتركتماني.

رد بيتر:

- لكنك لحقت بنا كالفوارس.. ولن نجرؤ بعد اليوم ان نهرب

www.elromancia.com

منك.. لكن ناني نسيت نفسها.

ابتسمت بيانكا بقلق، كلامه يذكرها ان المربيات لا يبكين على أكتاف اسيادهن. ولقد وضعها مرة اخرى في مكانها الصحيح لكن لو تزوجت ميتشل، فسيتغير كل هذا.

بعد الظهر أو على الاكثر في المساء، يجب ان تقول له إنها راحلة. وتمنت من كل قلبها ان لا يظهر الشفقة عليها، فهذا كثير على احتمالها.. لكن حين وضعا جواديهما في الاسطبل وتفارقا عند مدخل المنزل.. كانت مرة اخرى قريبة جداً من البكاء.. فقد احست ان هذه آخر مرة ستركض فيها عبر المراعي الساحرة برفقة بيتر لينكولن.

كان هناك رسالة في انتظارها على طاولة الردهة، فاخذتها تلاحظ بدهشة أن الخط لاختها كارلا وليس لأمها، فلماذا لم تكتب امها كالعادة؟

قلقها كان له ما يبرره، فوالدها ادخل المستشفى، وامها تقيم لدى كارلا، وطربة كثيراً لتكتب..

«لا داعي لمجيئك، فمنزل امك مقفل، وأنا لا استطيع استقبالك وامك هنا. سندعك تعرفين حال ان يطرأ أي تغيير. والطبيب متفائل بالشفاء فلا حاجة للقلق والذعر. واذا طلبُكِ سنضطر الى التفتيش لك عن مكان تقيمين فيه. لكنه في الوقت الحاضر لا يستطيع الكلام ونحن في ارتباك كامل».

رسالة مثالية من كارلا.. مع امر واضح جداً: انه لا تريد من بيانكا ان تعود.

ارادت يائسة ان ترى والدها، وبما أن كارلا غير متعاونة فقد

بدأت تراجع اسماء الاصدقاء.. تتساءل من يمكنها أن تطلب منه هذه الخدمة.

نزلت كالمعتاد الى الغداء، لكن غير قادرة على كتم الخبر.

ـ يجب ان اذهب.. قد لا تكون لي فائدة.. لكن يجب ان أكون هناك... ارجوك سيد لينكولن.. ايمكن ان تعفيني من واجباتي؟ اختي تستخف بالامر لكن.. لكن.. قد يموت والدي.

وانفجرت بالبكاء. فنزلت جانين فوراً من مقعدها واسرعت نحوها، لتلف ذراعيها حولها:

ـ ناني.. ناني.. لا تبكي..

وبدأت تبكي بدورها بصوت مرتفع.

تبادلت شيلا وابنها نظرات ذات معنى.. ووسط كربها، ادركت بيانكا برعب انهما ظناها تختلق العذر، وأنها تبكي لتثبت صدق روايتها... وهذا عقاب مناسب لازدواجيتها..

تولى بيتر الوقع بنفسه، فأبعد جانين بلطف، وطلب منها الذهاب الى بام.. ثم رفع ذراعه حول بيانكا، واخذها الى غرفة الجلوس العائلية.. ليضعها في اكثر الاماكن راحة، وقال:

ـ بالطبع ساعفيك.. لكنك لست في حالة تسمح لك بالسفر اليوم. سآخذك غداً بنفسي الى المحطة لأضعك على اول قطار وهذا سيعطيك وقتاً لتهدأي.. وسأتصل بالمستشفى أتذكرين ما اسمها؟

هزت رأسها نفياً.. كارلا لم تذكرها لها.

ـ السيدة نوكس، شقيقتك، لديها هاتف اليس كذلك؟ سأتصل بها.. عمتي تعرف الرقم، وسأقول لها كم انت مكتئبة، واصرّ على اجراء ترتيبات اقامتك.

ونظر اليها باشفاق:

- مؤسف ان يحصل هذا وقد استقريت لتوك. لكنك ستعودي الينا، اليس كذلك... مهما حدث بيانكا؟

- لست ادري.

- يجب ان تعودي.. سيتحطم قلب جانين... وأنا.. سأفتقدك.

رفعت رأسها متوسلة:

- اوه.. لا تقل هذا.. أنا.. لن استطيع تحمل المزيد.

انحنى فوقها يضع ذراعه حول كتفيها ليعبق أنفها برائحة سترته الجلدية وعطر بعد الحلاقة. وقال هامساً:

- لا تتكلمي كثيراً.. يجب ان اذهب معك.. لا تبدين قادرة على السفر لوحدك.

انفجرت في ضحك هستيري.. كيف ستصل تحت حراسة بيتر وهي تخطط للهرب مع ابن عمته.. وباستمرار ضحكها الهستيري صفعها وصاح!

- توقفي عن هذا!

توقفت فجأة عن الضحك، واخذ يمسح لها عينيها. قائلاً:

- أنا آسف، لكن هذا كان ضرورياً. سأذهب لاتصل بشقيقتك. اشربي بعض الشاي، سيهدئك.. وساتأكد ان احداً لن يزعجك.

تقدم الى الباب لينزع المفتاح، ثم يقفله من الخارج.. فجلست جامدة، تحس بالرضى والراحة... سيهتم بيتر بكل شيء لها. وسيهزم كارلا، ويهتم بتفاصيل سفرها، ويحصل لها على آخر

اخبار ابيها.

بعد قليل من العشاء، حضرت السيدة داوسون لأخذ الصينية من غرفة جلوس بيانكا مقدمة مواساتها وتمنياتها بشفاء والدها. وما هي إلا لحظات من خروجها، حتى طرق ميتشل الباب ودخل:

- تهنئتي لك.. كل شيء يسير على ما يرام.. لكن اكان من الضروري التسبب بهذا الاضطراب؟ أتعلمين.. لقد سجنك في جناحك ورفض السماح لي بالاقتراب منك!

واضح انه لا زال يعتقد انها كانت تمثل. فاحتجت:

- لكن ميتشل.. أنا لم اكن امثل.. والدي حقاً في المستشفى.

ضحك عالياً:

- كم هذا مناسب منه! لقد جعل من تمثيلك امراً مقنعاً.

هذه السخرية العديمة الاكثرات اصعدت غضبها.. فمالت نحوه، وعيناها تلمعان.

- الا تفهم! والدي مريض.. كيف يمكن لك ان تكون خالياً هكذا من الشعور؟

نظر اليها بدهشة:

- اتعنى انك قلقة حقاً لأجله!

- بالطبع!

- لا.. لا يمكن هذا.. فأنا كنت اكره أبي.. وربما هذا سيعقد الامور قليلاً؟

- ميتشل انا احب ابي... والى ان اعرف انه سيستعيد صحته، لن استطيع التفكير بشيء آخر.

- ومتى هذا؟

www.elromancia.com

- لا اعلم.. علينا الانتظار.

- وبينما أنت في الانتظار ابقى انا معلقا.. لا هذا غير جيد.. وغير منصف لي!

اذن كل اهتمامه هو أن ينفذ خطته... وارادت أن تتخلص منه في اسرع وقت ممكن. ودون التسبب بفضيحة.. وقالت بهدوء:

- انا مسافرة في الغد. وسأكتب لك حين اصل.. وسيساعدني جداً ان تحاول تفهم موقفي..

ولا استطيع فهم كل هذه الضجة حول أب.. لكن يبدو أنك مستعدة للتمسك باية فرصة للخلاص مني.

وتقدم نحوها يشدها بين ذراعيه في عناق ملىء بالغضب وليس فيه ذرة حب... احست انها مشلولة بين ذراعيه، تحاول عبثاً إبعاد وجهها عنه، ولم يسمع اي منهما صوت فتح الباب.

- توقف عن هذا ميتشل!

انه صوت بيتر. منخفض الايقاع لكن بوقع الفولاذ. وتركها ميتشل.. فأخذ بيتر ينظر من احدهما الى الآخر وقال ببرود:

- هل لي بتوضيح عما يجري؟

رد ميتشل:

- طبعاً... بيانكا وانا سنتزوج.. لذلك لا حاجة لك أن تتدخل.

- حقاً؟ اهذا صحيح بيانكا؟

هزت بيانكا رأسها نفياً.. فاستدار اليها ميتشل:

- ماذا تعنين بهذا؟ انت تحبيني.. اليس كذلك؟

قال بيتر ببرود:

- فليشفق الله عليك اذا كنت قد احببته!

استدار ميتشل اليه:

- احتفظ بشفقة الله لنفسك.. بيانكا تقدم خدمة جليلة لنفسها بزواجها مني.. وانت تفعل المستحيل لتفرقنا.. لكن كان يجب ان تعرف ان هذا سيحصل في النهاية.

التفتت بيانكا الى بيتر لتقول بلطف:

- انا اسفة.. لا بد. انه بدا لك وكأنني نكثت بكل وعودي.. لكن هذا ليس غلطتي... أترى.. حتى المربيات لهن مشاعر.. ولا يمكن التغلب على هذه المشاعر دائماً... مع أنني فقيرة غير ذات قيمة، إلا ان هذا ليس سبباً يمنع ان اكون زوجة جيدة.

رمته بالكلمات وكأنها التحدي... عيناها مثقلتان من التعب، وورود حمراء قاتمة تلتصق بخديها.

رد بعجب:

- لا اشك في هذا. لكن السؤال.. هل سيكون ميتشل زوجاً جيداً؟

صاح ميتشل غاضباً:

- لطالما طعنتني بالسكين في ظهري.. لمجرد أنني لست رصيناً متحفظاً مثل فيليب. لكن زوجة جيدة قد تصلح حالي.

وضع بيتر يديه في جيبي بنطلونه ينظر الى ميتشل متفحصاً ببرود:

- اظنك قد تجاوزت مرحلة الاصلاح... اتعلم بيانكا لماذا انت مستعجل للزواج؟

www.elromancia.com

صاح دون اكتراث:

ـ آه.. هذا الامر؟ لا اظنه سيشكل فارقاً كبيراً لها الآن وقد عرفتني جيداً.

والتفت الى بيانكا:

ـ ما يحاول بيتر ان يشكك به هو صحة تعلقي بك. لكن قبل ان نناقش هذا، سأقول لك امراً.. لأنني اذا لم اقله بنفسي فسيقوله هو.. والدي ترك كمية محترمة من المال تقسّم بين ولديه، لكن شريطة ان يموت قبل اوانه.. وهذا ما حصل.. لكنه اشترط شرطاً آخر، ان لا نستفيد من رأس المال، بل من كمية صغيرة هي فوائده، وأن لا نستفيد من املاكه قبل ان نصل الثلاثين، او ان نتزوج قبل هذا. وهكذا مال فيليب الى التجارة ونجح فيها، ثم تزوج صغيراً فتلقى حصته.. اما أنا فلم اتزوج. وعمري فقط ستة وعشرون.. امامي اربعة سنوات اخرى قبل ان احصل على المال والاملاك.. إلا اذا اشفقت عليّ.. وتزوجتني.

ردت بيانكا ببرود:

ـ كان بالامكان توفير الكثير من سوء التفاهم لو عرفت هذا منذ البداية. ولما كان هناك حاجة لتمثيلك الغرامي...

والتفتت الى بيتر:

ـ ولا لتحذيراتك العقيمة ومعاملتك المتسلطة لي.

رد بيتر ببرود أشد:

ـ انا آسف اذا كنت تنظرين لي كمتسلط.. لكنك اكدت لي انك لن تسمحي لنفسك بالتورط... وبهذا أملت أن لا أضطر لاخبارك. قال ميتشل ساخراً:

ـ الولاء للعائلة وما اشبه؟ اظننت ان كل ما عليك فعله أن تجبر بيانكا ان تكون فتاة طيبة، وستطيعك بعمى.. لكنها ليست حمقاء لهذه الدرجة!

رد بيتر بحدة:

ـ توقف عن هذا!

ـ حسناً.. لكن عرضي لا زال قائماً بيانكا. وكما اشار بيتر مشكوراً، قد لا اكون زوجاً مثالياً، لكن من غير المحتمل ان تحصلي على عرض افضل. واعدك، ان اسليك.. وبالنسبة للحب، ربما ساوفر لك منه ما يرضيك... ومن يؤمن هذه الايام بالحب القديم الطراز؟

قال بيتر ساخراً:

ـ نحن نعرف انك لا تؤمن به.. ولا اظنك ذكرت لها قصة باولين باترسون.. وسبب عودتك الى المزرعة؟

احمّر وجه ميتشل بشدة.. وصاح بعنف:

ـ لا!.. ولماذا تعرف؟ كل هذا كان من الماضي وانتهى. واستعدت رخصة قيادتي، ولم تعد مسؤولاً عني.

ـ لكن اطباعك لم تتحسن.. والشيطان الذي في نفسك، شيء يجب ان تعرفه بيانكا.

صاح ميتشل مجدداً:

ـ كان هذا غلطتها.. هددتني بفسخ الخطوبة اذا لم اصلح اطباعي.

التقط نظرة بيانكا اليه.. انها لم تتوقع سماع هذا، واكمل:

ـ اوه.. اجل بيانكا. كنت خاطباً من قبل... لكن باولا

اصبحت مقعدة. كان الامر حادثة.. اشخاص آخرون اصطدموا بنا... كانت باولا بلهاء.. فالابله وحده يضرب من يقود سيارة... كلهم قالوا أنني كنت اريد قتلها.. لكنني اردت فقط أن أخيفها... لكن لسوء الخط، صادفنا سيارة اخرى قادمة في وجهنا.

قال بيتر ببرود:

ـ لكن القاضي لم يأخذ بوجهة نظرك هذه.. وطبعك هذا مرض نفسي... ولقد نجوت من العقاب المناسب بسحب رخصتك وتعويض ضخم.. دفعته انا، شرط ان تجيء الى هنا لاصلاح نفسك لكن، لم يكن هذا كل ما فعلته.. فحين عرفت ان باولين ستبقى مقعدة طوال حياتها.. تخليت عنها.

ـ لكنها هي من حاولت تركي.. ثم أنني اسألك: هل انا من النوع الذي قد يكرس نفسه لزوجة مقعدة؟ لن أكون مخلصاً لها اطلاقاً.

ـ معك حق في هذا.

ـ بالتأكيد انت قديس لعين.. لكنني بشر. وظننت انني ساجد الكثير من الفتيات هنا.. لكن الوحيدة المقبولة، كانت تفضلك انت.. الى ان جاءت بيانكا.

سألت بيانكا بصوت مهتز خافت:

ـ تلك الفتاة.. الا زالت مقعدة؟

قال بيتر:

ـ لا.. لحسن حظها.

شهق ميتشل:

ـ وكيف تعرف هذا؟

ـ اعتقدت ان من حسن الاخلاق ابقاء الاتصال بها، لتعرف أن العائلة تكترث لمصيرها.

قال ميتشل ساخراً:

ـ اظنك اشتريت لها الزهور، وامسكت بيدها، ما يدهشني انك لم تشعر بضرورة التعويض عليها بالزواج منها.

ـ لقد رفضتني.. وللغرابة لا زالت تحبك. ولا اظنك تعرف ما مرت به تلك الفتاة المسكينة.. لقد هددتك بالتخلي عنك املاً من ان تتحسن... ولا اريد رؤية بيانكا في موقف مماثل.

ـ وهل انا ملام لو أن الفتيات يقعن في غرامي بكل بلاهة؟

سألته بيانكا:

ـ لماذا اذن خصصتني باهتمامك؟

ـ لأن الذي حدث، انك الوحيدة التي كنت متاحة لي... وفي الواقع انت من اختيار امي. هي التي قررت انك مناسبة، وجاءت بك الى هنا، كما يساق الحمل الى المسلخ. وهذا ما وفر علي عناء التفتيش. كما أنك كنت سريعة التأثر بي.

احمر وجهها ألماً:

ـ لا تسخر مني.

ـ لا اسخر منك يا حبي.

قاطعه بيتر:

ـ انها اكثر جودة من أن تكون لك. ربما فهمت الآن بيانكا، لماذا اردتك الابتعاد عنه.. وما تفعلين الآن معه، ليس من شأني.. لكنني حذرتك. والآن اخرج من هنا ميتشل.. بيانكا بحاجة

للراحة والنوم. وحين تعرف ماذا سيحل بأبيها ستتصل بكِ وتبلغك قرارها.. اليس كذلك بيانكا؟

ردت شاكرة:

- اجل، لن استطيع التفكير السوىَ الآن.

- لن تزعجها الليلة بعد ميتشل.

حاول ميتشل التقدم نحوها، لكن امام نظرة بيتر الحازمة تراجع:

- وداعاً حتى نلتقي.. فالعين السوداء فيها نظرة شرّ.

ما أن اقفل الباب وراءه، حتى تقدم منها بيتر.

- لأجل الله تخلصي منه. لست بحاجة لدخول الجحيم بسبب احساس مخطىء بالولاء. فالحياة معه ستكون الجحيم.. لقد نلت ما يكفيك الليلة.. اذهبي الى فراشك ونامي.

انتظر حتى دخلت غرفتها، وهي تغلق الباب، رأته يراقبها، وتعبير غامض في عمق عينيه.

* * *

- ٧ -

واصبح الحلم بعيداً.

لدهشة بيانكا.. وجدت كارلا تنتظرها في محطة القطار حين وصلت الى بلدتها، تقود سيارتها بنفسها. وقالت لها:

- عادت امي الى المنزل.. فقد جاءت هيلين فجأة.. يبدو أنها متعلقة بالعجوز اكثر مما كانت تظهر.. هل سمعت آخر اخبار ابينا؟ يا الهي كم ان رب عملك صعب الارضاء..! قال انك غير قادرة على السفر لوحدك.

- كانت رحلة طويلة.

نظرت من نافذة السيارة المنطلقة الى حقول الذرة، واخذت تفكر بالمزرعة الحمراء... وفاجأتها كارلا بسؤالها عن مدى نجاحها مع السيد هوليز.. لكنها لم ترد، فاستنتجت فشلها وقالت:

- حسناً.. توقع ان يعجب بفأرة صغيرة مثلك كان تفاؤلا لا لزوم له... ما الذي فعلته لاستحق شقيقتنا مثلكما مثيرتان

www.elromancia.com

للمتاعب؟

ضحكت بيانكا.. وتساءلت: ما قد تقول كارلا لو قصت عليها كل شيء؟ لو عرفت كارلا إنها كانت غبية لما ترددت في ان تستدعي ميتشل، وبناء لاية شروط... لكن كارلا كانت ستجد ذلك الشيطان الذي فيه وجها مختلفاً عما تجده في بن فوكس.

تماثل السيد روسل للشفاء بسرعة.. لكن كان عليه ان يعتني بصحته كثيراً في المستقبل، فأزمة ثانية ستكون قاتلة. امضت بيانكا كل وقتها ما بين المنزل والمستشفى، وحين خرج والدها الى المنزل، اخذت تمرّضه. وكان شاكراً لعنايتها به، وممتناً لاستعادة عائلته حوله.. لكن هيلين كانت عائقة أكثر من ان تكون مساعدة. ترفض المشاركة في الاعمال المنزلية، بل أنها كانت تخرب المنزل أكثر. وأحست بيانكا بالارتياح حين اعلنت ان الريف ممل وغادرت الى تورنتو.

مرت ايام الصيف بسرعة.. وكتب لها بيتر رسالة رسمية ضمنها شيك براتبها.. واجابته بنفس الرسميات. ما عدا هذا لم يكن هناك اية صلة لها مع المزرعة الحمراء.

بعد اسابيع من العناية الفائقة، اصبح والدها بحالة جيدة كما كان قبل مرضه... لكن اصبح من المستحيل عليه متابعة عمله بالكامل. وبدا ان نصف تقاعد امر محتم، وهذا ما سبب انخفاضاً في الدخل. وعرفت بيانكا ان عليها ان تجد عملاً.. وبدون اي خبر من المزرعة بعد ما يقارب الثلاثة اشهر بدا لها ان من غير المحتمل ان تكون جانين بحاجة الى مربية.. او ان اخرى حلت محلها.

صباح احد ايام شهر ايلول، وطعم الخريف يملاء الجو..

وصلت رسالة من بيتر... دعاها فيها: «عزيزتي بيانكا»

يسألها فيها عن صحة ابيها، ثم تطرق للسؤال عن امكانية عودتها الى المزرعة. فقد جربوا مربية مؤقتة لجانين دون نجاح. ولسوف تريحهم جداً من واجباتهم لو انها تعود... وكانت الرسالة رسمية، ما عدا بدايتها.. وخيبت املها بطريقة ما.. لكن ما تتوقع غير هذا؟ رسالة حب؟ اعلان عن طلب الصداقة؟ صحيح انها كانت تدعى ذكرى تلك الليلة التي هدأها فيها وواساها، لا يمكنها ان تدعى انه كان مدفوعاً بأي شيء اقوى من العطف الذي قد يظهره لجانين، اذا حصلت الطفلة على كابوس. انه لم يفكر بها مطلقاً كامرأة ناضجة.. الم يقل لها يوماً ان بالامكان ان تكون شقيقة جانين الكبرى؟ لكنها كانت تحس برغبة يائسة لرؤيته مجدداً... لقد قامت بواجباتها تجاه ابيها.. ولا شك ان من حقها الآن ان تعود، ولو لفترة قصيرة قبل ان تدخل الخدمة في بيوت الاطفال.

حين بحثت الموضوع مع أمها صاحت تعوّل:

ـ ظننتك عدت المنزل الى الابد.

ـ لا يمكنكما اعالتي. ويجب ان احصل على وظيفة. ومن الافضل لي ان انهى ما بدأته.

باكية، وافقت السيدة روسل.. لكن بيانكا تذكرت ان هناك شيلا يجب ان تفكر بها. وبدا لها غريباً ان بيتر لم يذكر عمته، ولا عمته كتبت لها لتدعم طلبه. ولو انها لا زالت ساخطة عليها لصدها ميتشل، فلا بد أن المياه في المزرعة لن تكون سائغة اطلاقاً... لذلك ترددت، متسائلة عما اذا كان يجب ان تذكر الموضوع لبيتر... ولم ترد على رسالته فوراً.

دخل شهر تشرين الاول، وبدأت الاشجار تتحول الى حمراء

وذهبية واستمرت زهور الصيف المتأخرة تزّين المساكب... خلال هذه الايام المبكرة من الخريف اتصلت شيلا هوليز... بيانكا، التي ردت على المكالمة بنفسها، كادت ترمي السماعة من يدها، حين سمعت الصوت الباتر القارص المألوف. وسألتها متعالية:

- متى ستعودين؟ الم تصلك رسالة بيتر؟ لا بد ان والدك استعاد صحته... وجانين لم تعد محتملة.. انها لا تحصل على ما يكفي من تمرين خاصة ان بيتر ومارجي مشغولان الآن بمعرض الخريف.. وبام قدمت استقالتها... وانا في حيرة من امري، ماذا سأفعل بالطفلة؟

ردت بيانكا باختصار:

- ساسافر في الغد.

كانت رحلة طويلة متعبة. الضباب المبكر أخّر القطار عن موعده حتى انها لم تعد تستطيع اللحاق بالقطار التالي المتجه الى القمة الحمراء.. وكان القطار الذي لحقت به قطار شحن قذر وبطيء. المعاملة فيه تختلف عن المعاملة في القطار السريع. كما أنه مرّ بها في طريق طويلة عبر الحقول ليقف في محطات تجارية يفرغ فيها البضائع.. لكن بظهور التلال، اطلت بيانكا من نافذتها تتفرج عليها.. وتساءلت عما اذا كان بيتر هو من سيلاقيها على المحطة، واخذ قلبها يخفق ترقباً، في وقت كان القطار يدخل المحطة، ووجدت ليونيل بانتظارها.

- سعيد لرؤيتك ثانية آنسة.

- وانا سعيدة لعودتي ليونيل.

خلال الرحلة من المحطة الى الوادي.. اخذت توقعاتها

تتضخم.. كيف سيلاقيها بيتر؟ هل سيعود الى رسمياته القديمة؟ هل تخطى الآن مرحلة اعتبارها طفلة؟ ومرة اخرى اصيبت بالخيبة فالسيدة هوليز هي من استقبلتها عند باب المنزل، ولوحدها.

- شكر لله على قدومك! الآن استطيع أن أنعم ببعض الراحة. ماالذي اصابني حتى قبلت رعاية ابنة فيليب.. لا بد أني كنت مجنونة.

تقدم ليونيل بحمل الحقائب، فوجهت شيلا كلامها نحوه:

- نفس الجناح ليونيل.. انزلي حتى تكوني حاضرة بيانكا.. فليس في المنزل سوانا. وستتناول العشاء معاً... بيتر ومارجي في تورنتو، يشاركان في معرض الخريف، السنوي. وقد نتكمن من التفرج عليهما في التلفزيون.

وما هي إلا لحظات حتى جاءت جانين طائرة، لترمي نفسها بين ذراعي بيانكا المفتوحين:

- اووه.. ناني.. ناني... هل عدت حقاً؟

دفنت بيانكا وجهها في شعر الطفلة الاشقر.. ترحيب جانين بها كان التعويض لها عن غياب بيتر.

في غرفة الدرس، شاهدت بيانكا لعبة ضخمة تستطيع ان تشير وتتكلم لدى الضغط على ازرار معينة..

وقالت جانين:

- انها هدية «عيد» ميلادي من امي وابي.. حصلت على العديد من الالعاب... لكن هذا كان منذ زمن طويل... وأنا الآن اتطلع بشوق لعيد الميلاد.

ضحكت بيانكا:

- صحيح؟ ماذا فعلت في عيد ميلادك؟

- عمي بيتر ومارجي اخذاني الى البحيرة.. ودخلنا الى كهف مح.. محر...

وتلعثمت بالكلمة:

- متحجر..

- اجل.. والإضاءة فيه كانت جميلة.. ولديّ شيء لك.

- لي أنا؟ كم هذا جميل منك حبيبتي.. لكنك لم تكوني لتعرفي انني عائدة؟

- قلت انك عائدة.. وعمي بيتر قال انك ستعودين.. تعالي لأريك ماذا لديّ لك:

ادخلتها الطفلة الى غرفتها الصغيرة، تتحدث اليها كيف ان بيتر كان واثقاً من عودتها.. خاصة وان ميتشل غادر المزرعة يوم سافرت هي بالضبط... ثم فتحت جانين دُرجاً لتخرج شيئاً ملفوفاً بورق فضي..

- خذي.. اليس رائعاً؟

حين فتحت بيانكا اللفافة وجدت حجراً اسطوانياً ازرق اللون.. وعلمت ان بيتر قد اشتراه لها كما وعد.. اللون كان يقارب اللون الليلكي اكثر من الازرق مع خطوط داكنة، وكان الحجر مقطوعاً بشكل رائع ومصقول حتى اللمعان. امسكته بيانكا في يدها.. اذن، حتى وهي بعيدة مئات الاميال تذكرها بيتر واشترى لها مثل هذا التذكار الثمين.

- هل اعجبك؟

- انه رائع الجمال. وسأدخره ككنز دائماً.

وليس فقط لأجل جانين! انه قطعة من هذه المنطقة تأخذها معها حين تترك المزرعة لتبقى ذكرياتها حية عنها وعن مالكها..

وضعت بيانكا الطفلة في فراشها قبل ان تنضم الى شيلا لتناول العشاء، ومشاهدة التلفزيون.. كانت متشوقة لرؤيته.. فهذا افضل شيء لها الآن وهو غائب عنها... ولطالما كان رائعا على صهوة جواد.. لكنها كانت مضطرة الى توضيب غرفة الدرس التي كانت في حالة مزرية من الفوضى، منذ ان تركت بام العمل في المنزل، فبديلتها فتاة صغيرة في السادسة عشرة من عمرها من بنات القرية. كان هناك كومة صحف على الطاولة ليست في مكانها... دون اهتمام نظرت بيانكا اليها وهي توضبها لتزيلها.. كانت تمثل مادة القراءة المفضلة لدى شيلا.. ولا بد انها دليل على قضائها وقتاً طويلاً مع جانين.. احدى هذه الصحف كانت مطوية على صفحة اخبار المجتمع، فيها الولادات، الوفيات، الزواج، والخطبة. حول احد هذه الاعلانات كان هناك خط احمر... قرأت فيه بيانكا بذهول خبر خطبة بيتر لينكولن، من مزرعة الحمراء الى الانسة مارجريت لورانس من مزرعة الغابة.. وتابعت الفقرة تقول: إنه اتحاد بين عائلتين اصيلتين معروفتين.. سيكون له صدى الترحيب في الاوساط الرياضية والارستقراطية..

حدقت بيانكا الى الصحيفة وكأنها ترى امامها ثعباناً.. لقد كانت تعتقد أن صداقتهما ستستمر من النقطة التي افترقا فيها... وآخر ليلة قضتها هنا كانت لا تزال حية في تفكيرها... لكنه الآن وضع حاجزاً بينهما واخيراً اذعن الخريف لسحر الربيع.

قلبت الصفحة لتنظر الى التاريخ، ولتكتشف انها تعود الى ما

قبل تاريخ رسالته لها.. لكنه لم يذكر هذا في رسالته. ما من شك انه يعتبر ان حياته الخاصة هي ابعد من عالمها، ولم يخطر بباله الاشارة الى خطبته... فسيد المزرعة لن يتنازل مطلقاً في ان يخبر احد تابعيه عن زواجه المنتظر.

مارجي معه الآن في تورنتو، ومعاً سيتشاركا الانتصار. بينما هي.. الغبية المسكينة، عليها ان تجلس وتراقبهما على التلفزيون، وهي تعلم انها منفية وإلى الابد من عالمهما.

كانت على وشك ارسال خبر لشيلا انها متعبة وتريد أن تنام... لكن هذا لن يكون سوى تأخير في مواجهة المحنة التي ستواجهها عاجلاً ام آجلاً... ومن الافضل ان يكون عاجلاً.

ثم ان شيلا وحيدة، وترغب في صحبة، حتى صحبتها هي مع انها تذكر شيئاً عن خطبة ابن اخيها ولا عن سفر ابنها.. لكن على الارجح ظنتها تعرف، او انه امر غير مهم لها.

لكن شيلا لم تذكر شيئاً.. بل سألت بيانكا عن عائلتها، وتحدثت عن مشاكلها مع الخدم في المنزل. السيدة داوسون اصبحت كبيرة في السن، وتجاوزت مرحلة العمل... وبديلة بام غير مرضية... فاعتقدت بيانكا ان المرأة، خائفة من ذكر قرب زواج بيتر.. لانها دائماً كانت تخاف من زواجه قبل ابنها ميتشل ويحرمه بهذا من المزرعة.

كان التلفزيون يعمل طوال فترة الطعام، الذي قدم لهما في غرفة جلوس العائلة... وما ان انتهت الوجبة حتى بدأ العرض.. بيتر ومارجي مشاركان به في مختلف المراحل. وظهر كلاهما في ثياب ركوب رائعة، كلاهما يسيطر سيطرة كاملة على الجواد الجميل

الذي يركبه. في لقطة مكبرة، شاهدت وجه بيتر... متجهم قليلاً.. متوتر.. ولاحظت كيف كان يرتب عنق جواده بعد كل حركة متقنة.

بينما كان وجهه يتهلل بابتسامته الساحرة المعتادة. على عكس تجهمه، كانت مارجي كلها ابتسام.. وكانت تقوم بقفزاتها بكل ثقة.. واكملت هي وبيتر الجولة دون اخطاء.

ـ ليلة السبت ستكون اهم مباراة.. ولا امانع مطلقاً في المراهنة على أن جواد بيتر هو الافضل لهذه السنة... لقد وعدت جانين ان تبقى صاحية لتشاهد ليلة الختام.

لقد اصبحت تحب الركوب.. وهذا ما يسعدني.

ونظرت الى بيانكا محدقة لتكمل:

ـ لقد ارتبط ميتشل بفتاة تدعى باولين باترسون.. اجفلت بيانكا وقالت بدهشة:

ـ الفتاة التي كاد يقعدها؟

ـ لا بد أن بيتر اخبرك هذا... انه يبالغ دائماً. باولين بقيت مشلولة بعد الحادثة، هذا صحيح.. ولسبب ما تلوم ميتشل..

وهذا لؤم منها.. على ما اظن..

إذن، هذه وجهة نظر شيلا... واكملت:

ـ حسناً، لقد التقيا مجدداً، وسوياً ملفاتهما، وسيتزوجان قريباً. ثم سيسافران الى الكاريبي.

كانت تنظر بخبث ومكر الى بيانكا وهي تعطيها هذه المعلومات واحست بيانكا بوخزة الم.. لكن دون عواقب. فيما مضى، كان الكاريبي وميتشل يبدوان لها قمة الرومانسية. الى ان اكتشفت

العمق المظلم لشخصية ميتشل. . . وقالت:

ـ اتمنى لهما السعادة.

ـ حان الوقت ليعطف احدهم على هذا الولد. . . ضعي قطعة حطب في الموقد بيانكا. . ارجوك. هذا المكان بدأ في أن يصبح كمنزل للثلج. . وشكراً لله ان هذا آخر شتاء لي هنا. . . سأسافر للعيش مع صديقة لي في فرنسا.

هذا يعني حين يتزوج بيتر. . وأجالت بيانكا نظرها في الغرفة بحزن. . لا شك ان مارجي ستبدل ديكورها. كلا الرجلين. . من كادت ان تخطب له. . ومن تحبه. . سيتزوجا. . اما هي. . فستتزوج وظيفة في بيت للاطفال المشردين.

ذكرت شيلا ان وقت النوم أزف، ولا بد أن بيانكا متعبة وافترقتا كل الى ليله.

في الصباح التالي، بإصرار من شيلا، اعادت تعارفها مع غريتا وخرجت مع جانين في رياضتهما الصباحية. . . الخليج لا زال هناك كما المراعي، حيث بساط من اللون القرمزي الملكي يمتد، هنا وهناك، بقع ذهبية. . لكن سعادتها كانت محدودة. فالموسم كان موسم صيد والمراعي التي كانت تسرح فيها وتمرح اصبحت ممنوعة على المتنزهين. . . لكن بيانكا كانت تكره فكرة قتل الطيور، كما كرهت تماماً منظر الطرائد المشوية على مائدة الغداء. . لكن شيلا ضحكت وقالت ان معظم الرجال يجدون متعتهم في الصيد، بينما الاخرون يجدون في المروج مصدراً للرزق.

في اليوم التالي. . اقترحت جانين ان يتوجها الى مزرعة الغابة، ووافقت بيانكا لأنها لم تشاهد المزرعة من قبل. . كانت تحس

بالفضول لترى منزل مارجي. . مع انها لا ترغب في مقابلة العائلة.

استدارتا لتخرجا من الطريق المتجهة الى الوادي الى طريق تحاذي كتف التل. . . في الجانب الاخر من المرج وصلتا الى اشجار من الصنوبر تتخللها اشجار اصغر منها من نفس الفصيلة. . زرعتها بينها جمعية انماء الغابات في المنطقة. . . اخيراً وصلتا الى فسحة خالية عند بطن الوادي، هناك اطل عليهما منزل مزرعة رمادي، مشيد وسط حقل اخضر صغير، والى البعيد قليلاً، ساقية ماء تلمع بين جذوع الاشجار. وشهقت بيانكا:

ـ كم انها بقعة جميلة!

ـ لو ذهبت وقرعت الباب فستعطينا عمتي ليزا شربة ماء أنا عطشى كثيراً.

دون رغبة في لقاء اهل مارجي، قالت بيانكا، ان لا وجوب لازعاج السيدة لورانس. . لكن، في تلك اللحظة خرج رجل من فناء المنزل الخلفي، ولوّح لهما، فصاحت جانين:

ـ عمي جورج!

الرجل الذي تقدم نحوهما، ذكر بيانكا ببيتر، له نفس الجسد النحيل القوي، نفس الوجه الطويل الاسمر، لكنه اقصر قامة وعيناه سوداوان.

ـ مرحبا يا فتياتي. . جئتما لزيارتنا؟

ـ هذه مربيتي.

ـ اجل. . الآنسة روسل. . اليس كذلك؟ تفضلا بالدخول.

ـ لا اظن لدينا الوقت. . شكراً لك. . .

قاطعها.

- هراء.. زوجتي لن تسامحني لو تركتكما تذهبان دون مرطبات. صاحت جانين:

- وأنا عطشانة.

كانت تعرف بيانكا مدى ضيافة اهل الريف التي لا حدود لها... وانها لو دخلت منزلاً، لن تستطيع التخلص دون طعام... لكن في وجه اصرار جانين، لم يكن لها الخيار.

استقبلتهما اليزابيت لورانس بحرارة وانزلت قطة سمينة عن مقعد بذراعين كي تجلس بيانكا.. بعد اعطاء الطفلة بعض الحليب الطازج، ضغطت على بيانكا للتناول كوبا من عصير الفاكهة... وسألتها اذا كانت ترغب في تجربة قطعة من الحلوى... وقبلت قطعة.. وبقليل من الارتباك، ادركت أن اهل مارجي ليسا ابدا ما كانت تتوقع.. فقد بديا لها زوجين ملتزمين ببيتهما، وكانت تظنهما من الارستقراطيين المتزمتين. املاكهما الحقيقية هي بيت اسلافهم وهذا ما جعل مارجي مقبولة في عيني بيتر، ويوماً ستصبح مزرعة الغابة لها، فهي ابنتهما الوحيدة.

اخبرت بيانكا السيدة لورانس انها كانت تشاهد مباراة القفز على التلفزيون، فبرقت عينا امها بالفخر، واضح أن ابنتها تعنى كل شيء لها... واعلنت:

- مارجي فارسة ممتازة.. فليباركها الله! وهي فتاة طيبة كذلك، فهي لا تترك نجاحها يتلاعب برأسها. وستكون زوجة رائعة لرجلها. صحيح انها ليست مغرمة في الخبز والطبخ مثلي، لكنها تعرف كيف تصنع هذه الاطباق الغريبة التي تشاهدين صورها في

الكتب والمجلات.. صحيح انها لن تحتاج الى العمل كثيراً في بيتها. كما أنها تعرف الخياطة... وستخيط ثوب عرسها، فهي لا تحب الشراء من بيوت الازياء... اتودين رؤيته؟ لن تمانع لو أريتك اياه.. طبعاً انه لم ينته بعد، فيدها ثقيلة في التطريز.. لكنها تبدو كاللوحة الجميلة وهي تعمل فيه ورأسها مليء بالاحلام.

اجفلت بيانكا داخلياً من مثل هذه الصورة.. وبما ان ثوب العرس يُصنع الآن، فهذا يعني ان العرس قريب... وقالت:

- افضل الانتظار لرؤيته حين ينتهي... سيفسد تأثيره لو رأيته غير منته. كما أنني وجانين يجب ان نبدأ في العودة الآن، وإلا سنتأخر للغداء.

رافقهما الابوان حتى مكان وقوف الجوادين، مع دعوات للمجيء ثانية، ثم لوحا لهما وهما يبتعدان. وتقدمتا عبر الغابة الى الجدار الحجري المنخفض الذي يفصل الأراضي عن بعضها وجانين تتحدث بمرح عن العم جورج والعمة ليزا.. اوقالت بسعادة:

- قالا لي إن عليّ السكن معهما حين تتزوج مارجي.. فلن يكون لهما فتاة صغيرة بعدها.

لم يكن هناك مهرب من تأثير الزواج القادم، وتمنت بيانكا لو أنها لم تعد. حتى الآن تمكنت من تجاهل هذا الواقع.. بشكل رئيسي، لأن شيلا لم تكن تذكر هذا لها، فلا بد ان الموضوع مزعج لها. اقرب ما قالته كان وهما يشاهدان التصفيق لمارجي حين ربحت جولة دون خطاء.. اذ قالت ببرود:

- سيفوتها كل هذا.

- لكنها لن تحتاج الى التخلي عن رياضتها؟

www.elromancia.com

ـ ربما في البداية، لكن بوجود الاطفال.. لن يكون الامر سهلاً.

لكن. من ناحية اخرى.كانت السيدة هوليز تتحدث كثيراً عن ميتشل وباولين، وكأنها تأمل ان ترى الندم على وجه بيانكا.. واضح انها على ثقة وثيقة بباولين، وان الفتاة تحب حماتها اكثر مما يحبها ابنها.

لم يصل بيتر حتى اليوم التالي.. اتصل بشيلا يقول انه سيصل وقت العشاء، لكنه سيذهب اولاً الى مزرعة الغابة ليوصل مارجي.. وقت العشاء من اليوم التالي، تذكرت شيلا فجأة ان اوامر السيد، أن تتناول بيانكا العشاء في غرفتها.. وقالت شيلا:

ـ هكذا.. اخشى أن يكون هذا آخر عشاء صغير حميم لنا في غرفة جلوس العائلة.. فبيتر يحب الجو البارد لغرفة الطعام.. وبالطبع هذا منزله، ورغباته تنفذ فيه.

بيانكا التي تعرف ان سبب عزلتها القديمة كانت بسبب وجود ميتشل، حاولت ان لا تحس بالألم. ثم، بما أن مارجي قد تتعشى مع العائلة، فسيكون الافضل لها ان تبقى في جناحها... وبشراسة قالت لنفسها انها لن تتمكن بسهولة ان تنسى بيتر لينكولن ولا تريد ان تنساه... الفرح سيتوقف عن الوجود..

والارض ستكون قاتمة سوداء.. حين يأتي الوقت لتغادر المزرعة.

* * *

ـ ٨ ـ

تفجر البركان

بوجود جانين في الفراش نائمة، جلست بيانكا في غرفة الدرس، وأمامها سلة مليئة بالثياب التي بحاجة إلى تصليح.. فجانين دائماً تفسد ثيابها بطريقة أو أخرى... كان ضوء النهار يموت خلف التلال.. وكبحت هوى في أن تقف على النافذة تراقب وصول السيارة.. صحيح أنها لن تشاهدها، فالمنظر من النافذة لم يكن يمتد إلى واجهة المنزل، لكنها سترى أنوار المصابيح الأمامية، وإذا فتحت الدرف الزجاجية، قد تسمع صوته.

وصلت ايملي، بديلة بام، مع صينية العشاء، تاركة الباب مفتوحاً-خلفها.. وسرعان ما سمعت بيانكا همهمة الأصوات من الأسفل.. إذن لقد وصل بيتر ومارجي. فقالت ايملي وهي تضع الصينية على طاولة صغيرة قرب بيانكا.

ـ لقد عاد الإزعاج الكبير.. العشاء ثانية في غرفة الطعام والمسكينة السيدة داوسون تقدمه له وكأنه أحد الملوك. هه.. إنه

www.elromancia.com

ليس أفضل من أي رجل آخر.

لم ترد بيانكا، فلا فائدة في توبيخ ايملي على قلة الاحترام. فهي لا تعرف معنى الكلمة... وأكملت ايملي بوقاحة:

- انزلي صينيتك الى المطبخ حين تنتهي... قدماي متعبتان..

- طبعاً.

كانت تعلم أن بام لم تكن تسمح بمثل هذا... وغادرت ايملي الغرفة باستدارة جعلت تنورتها القصيرة تطير، وتبدو غريبة جداً تحت مريلتها الطويلة، وصفقت الباب خلفها.

كان القمر المكتمل يتصاعد خلف المنزل ليعطي المروج لوناً فضياً، لتلمع الاعشاب بلمسة الصقيع فوقها، وكأنها مزينة بالماس.. بيتر موجود تحت نفس السقف الذي يظللها.. لكنه بعيد عنها كبعد هذا القمر... استدارت عن النافذة دون أن تسدل الستارة، والتقطت صينيتها لتنزل السلم نحو المطبخ، حيث كانت السيدة داوسون، التي رفعت حاجبيها.

- كان يجب على تلك الكسولة القذرة أن تفعل هذا.

- لا بأس في هذا.

ثم عادت إلى الردهة، تتردد قليلاً عساها تسمع صوت بيتر. لكنها لم تسمع شيئاً.. فصعدت السلم ببطء.. تتخوف من الليل الطويل الذي ينتظرها في غرفتها... فجأة وجدت نفسها وجها لوجه معه. كان يرتدي بذلة قاتمة وقميص أبيض، زي لم تشاهده في مثله من قبل.. جعله هذا يبدو اطول قامة، وأكثر شقارا، ومميزاً جداً... وصاح بلهفة مبتسماً بسرور ظاهر:

- بيانكا! بدأت اتساءل ما حصل لك؟ قالت عمتي انك عدت

لكن لماذا لم اشاهدك عند العشاء؟

- لأنني اذكر انك اصرّيت على ان اتناوله في غرفتي.

- انا؟ لكن هذا.. منذ زمن طويل قبل أن... اين انت ذاهبة الآن؟

- الى غرفتي.

تنحى جانباً ليتركها تمر، لكن حين وصلت بابها، اكتشفت انه لحق بها، ودخل قبل ان تغلق الباب، ينظر من حوله باعجاب:

- هذه الطف غرفة حميمة في البيت كله. حين تتركنا جانين قد نستخدمها كغرفة جلوس.

وتقدم الى النافذة:

- ولها منظر جميل كذلك.

استدار ينظر اليها:

- ما بالك بيانكا؟

- لا شيء.. كنت اذكّر نفسي بأن اهتنك على نجاحك. شاهدناك على التلفزيون لا بد انك تشعر بالفخر بجوادك الاصيل الجديد.. انه جميل جداً.. اليس كذلك؟

- أجل «سلطان» جواد رائع.

تقدم ليقف امامها، ووضع اصابع يده تحت ذقنها ليرفع رأسها الى فوق، لكنها ابقت عينيها منخفضتين.

- انظري اليّ.

ببطء رفعت رموشها الكثيفة، والتقت عيناها الرماديتان الصافيتان كينبوع الجبل، بنظرته المتفرسة.. لكنه تنهد وانزل يده ليستدير عنها:

www.elromancia.com

- اوه.. بيانكا. لو انك فقط لست صغيرة هكذا!

- هذا عيب ستصلحه الايام... فالنساء يكبرن بسرعة.

- كلنا نكبر بسرعة.. وسأكون عجوزاً قبل وقت طويل من بلوغك سن العجز.

- غير صحيح.. النساء يكبرن قبل الرجال.. بعضهن يهرمن في الاربعين.. وانا قابلت الكثير من الشبان في عمر الخمسين.. وهذا كله يعتمد على ما اذا ترك المرء نفسه يهرم ام لا.

ضحك:

- من اين لك كل هذه المعرفة؟

- بين اصدقاء ابي.. كان هناك انواع كثيرة في القرية.

- اجل.. انت معتادة لحياة القرى. الا تحنين الى المحلات والاضواء؟

اتحبين المزرعة؟ الا تجدينها معزولة؟

- انا احب المزرعة.

تهلل وجهه:

- اتحبين العيش هنا.. دائماً؟

- هل استطيع؟ اعني ايمكن ان تجد لي عملاً هنا بعد ذهاب جانين؟

تجعدت زوايا عينيه بضحكة مكتومة:

- أظنني قادر على هذا.

- ألن تمانع الآنسة لورانس؟

- مارجي؟

- أجل.. ستكون السيدة هنا فيما بعد.

- عمي بيت!

وقفت جانين بثوب النوم عند باب غرفتها، وصاح بيتر:

- جان.. أيتها العفريتة الصغيرة، ألا يجب أن تكوني نائمة؟

- اردت البقاء مستيقظة لأراك. لكن جدتي لم تسمح لي.. استيقظت لسماعي الأصوات وعلمت أنك أنت.

ركضت عبر الغرفة لتحضن ساق بيتر:

- هل جلبت لي شيئاً؟

حملها:

- أجل.. لكن عليك الانتظار حتى الصباح.. الوقت متأخر الآن.

- ما هو؟

- انتظري حتى الصباح.. أردت رؤيتي أنا أم الهدية؟

مع أن جانين كانت صغيرة إلا أن الدبلوماسية لم تكن تنقصها:

- أنت عمي.. هل جلبت شيئاً لناني؟

- أجل.. لكنني لا أعلم إذا كانت ستقبله أم لا..

ردت بيانكا ووجهها أحمر:

- سيد لينكولن.. لست مضطراً..

قاطعها:

- انتظري لتري ما هو. ربما أنت محقة، ولست مضطراً. هذا لك لتحكمي عليه. تعالي جان، اذهبي إلى النوم، أو لن تكوني نشيطة للركوب صباحاً.

- عمي بيت.. ألا استطيع أن أكون اشبينة مارجي؟ عمتي ليزا تقول إنني صغيرة.. لكنها ستسألك.. ستقول نعم.. أليس كذلك؟

www.elromancia.com

- أظن هذا أمر تقرره مارجي.

بعد قليل سمعت بيانكا ضحكات الصغيرة من الغرفة، ثم عاد بيتر يقفل الباب وراءه.

- مؤسف جداً أن يضطر فيليب لخسارة سنة كاملة من طفولة جانين. إنها في عمر ساحر.. والبنات يكبرن بسرعة.

- أكان من الصعب عليهما أخذها معهما؟

- لا.. لكن ليس من الحكمة أخذها.. فهما في البرازيل ليؤسسا فرعاً جديداً لشركتهما، وهناك جميع أنواع المخاطر.. وفيليب يضع عمله في الدرجة الأولى.. اجلسي بيانكا.. تبدين متحفظة وأنت تقفين هكذا.

أطاعت، وغرقت في مقعد وتير، فجلس في مقعد مماثل في مواجهتها، وتنهد:

- وجود امرأة في غرفة يجعل المرء يحس أنه فعلاً في بيت.. لو أن غليوني معي!

- ألا تحمله دائماً؟

- ليس في مثل هذه الملابس.. فلقد ارتديتها لمناسبة.

- آه.. صحيح.. ألا يجب أن تكون الآن في الأسفل؟ لا بد أن الآنسة لورانس تتساءل عن مكان وجودك.

- مارجي لم تستطع المجيء الليلة. فلديها موعد آخر، أكثر أهمية.. وهذا ما يذكرني.. ماذا كنت تعني حين قلت أنها ستكون السيدة هنا؟

- ستسكن هنا.. بعد زواجك؟

- لا استطيع السكن في أي مكان آخر.. يا إلهي! هل حدث

وشاهدت ذلك الاعلان في الصحيفة؟

- أجل.. شاهدته.. وجدته هنا.. على الطاولة.

- وكيف وصلت الصحيفة إلى هنا؟ غير مهم.. كان هذا غلطة.

مارجي ستتزوج، لكن ليس مني. إنها مخطوبة لشاب يدعى باتريك لينكولن من بلدة قريبة من القمة الخضراء في مقاطعة مينوتوبا.. واعتقد، لأنها دائماً تشاهد معي، ولأن اسمينا متشابهان، وكذلك العائلة، فقد اختلط الأمر على المراسل المحلي للصحيفة.. وبالطبع صححنا الإعلان.. ألم ترى هذا؟

- لا.. وكل شيء كان يشير إليك وإلى مارجي.. فظننتك.. تحبها.

- ظننتها يوماً تعلقت بي، وكان علي أن أكون قاسياً معها.. ولم يكن أحد أكثر سعادة مني حين أعلنت خطوبتها لشخص آخر.

- ألم تكن تدرك أنك قد تحطم قلبها.

- لم يكن هناك أية امكانية لهذا بيانكا. كانت متعلقة بي فقط لأننا كنا دائماً معاً. باتريك يناسبها أكثر مني بكثير. كما أنه يقضي معظم السنة في تورنتو.. وأنا لا ميل لي للمدن.. أما مارجي.. فهي تهوى حياة المدينة. لقد برهنت الأحداث صدق حدسي حولها.

ردت بيانكا بمرارة:

- صحيح.. أنت حكيم جداً.. ومحتسب.. ولا أظنك قادر على حب أية امرأة.

نظر إليها بدهشة:

- لكن ألا تعرفي..

ـ أجل.. أعرف.

قفزت واقفة لتواجهه وعيناها تلمعان.

ـ أنت لا يمكن أن تخطىء كما أخطأت أنا حول ميتشل فأنت لا تملك القلب.. أنت لم تتزوج أبداً لأنك لم تجد المرأة التي لها العمر المناسب لك، ولا المستوى اللائق، ولا المواصفات المناسبة. مارجي صغيرة جداً وطائشة.. وأنا صغيرة جداً وطفلة.. لكن لي قلب يحس.. بينما أنت.. أنت.. أنت جبل جليد.

صمتت في منتصف تدفق كلامها حين جذبها بحركة واحدة بين ذراعيه.. وأصبح وجهها مدفوناً في صدره.

بدا لها زمناً طويلاً قبل أن تعود إلى الواقع من ذلك العالم الساحر المثير الذي انجرفت إليه، ومن كل تفكير معذب لها. كانت تجلس متلاصقة ببيتر، شعرها مشعث بفوضى مجنونة حول وجهها، وذراعيها ملفوفتان على عنقه وتمتم:

ـ ألا زلت تظنين أنني جبل جليد؟

همست تخبىء وجهها الأحمر في كتفه:

ـ بل أنت كالبركان.

ـ سأقول لك الآن ما جلبت لك معي.. إنه خاتم أمي..

أخذته إلى الصائغ في تورنتو لينظفه ويلمعه، وأرجو أن يناسب اصبعك.. وهكذا، إذا استطعت اقناع نفسك بالزواج مني.. من أعزب عجوز فظ الطباع، والذي وجد لتوه المرأة المناسبة، فالخاتم لك، وأنا لك.. والمزرعة لك.

لم ترد عليه بالكلمات، بل تسللت من بين ذراعيه لتجلس عند قدميه، ورأسها على حجره، وأخذ يتلاعب بشعرها الطويل..

وسألته:

ـ متى بدأت تفكر بي كامرأة، وليس كمجرد مربية لجانين؟

ـ حين استويت جيداً على صهوة جواد. مع أنني وجدتك جميلة عند أول لقاء لنا. لهذا كنت متخوفاً من تعريضك لجنون ميتشل. وحين وقعت، وظننتني ابن خالي.. اخجل أن اعترف.. لكنني احسست بغيرة قاتلة.

ـ ألهذا كنت بارداً متحفظاً فيما بعد؟

ـ أجل.. لكن كان يجب أن أكون أكثر فهماً وأنا في هذا العمر. كنت آمل أن أخيفك كي تبقين بعيدة عن منال ميتشل، لكن دون نجاح. لكنني لم استطع التفكير بك مع ذلك المتوحش. ما كنت قادرة على ترويضه، وما ان يزول وهمك، حتى يكون قد هجرك.

ـ كنت مسحورة به.. أوقعني تحت سحره.. إنه جميل الطلعة.

ـ أخشى أن لا أستطيع منافسته في هذا.. فأنا فارس عجوز..

ـ حبيبي.. أنا أحب وجهك.. وليس الجمال ما يهمني.. وأنا أعرف من داخل قلبي، أنني أحببتك دائماً.. ولم أكن في الحقيقة اهتم به.

ـ قلت يوماً أنك تحبين المزرعة، لكنك أضفت على الفور أنك قد تضجرين منها مع الوقت.

ـ قلت هذا لأنني كنت خائفة أن تعرف كم أرغب في العيش هنا.. معك.

www.elromancia.com

- اوه بيانكا . . لقد بدا المنزل فارغاً مخيفاً وأنت غائبة عنه . وفي النهاية لم أعد استطيع تحمله . . وكان عليّ محاولة أن استعيدك .

- حسناً . . لقد جئت .

- ولن أتركك ترحلين ثانية .

- لا أريد هذا أبداً . . أبداً بيتر .

ودفنت رأسها في ركبته :

- ما بك حبيبتي؟

- لن تمانع بأن يكون لنا أولاد، حتى ولو أزعجوك بالدراجات ففضلتها على الخيل .

ضحك :

- سنضطر للمخاطرة . . لكن قد نرزق بابنة . . حتى أكثر من واحدة . .

- لأبي ثلاثة بنات .

- كارلا . . هيلين وبيانكا . . وبيانكا أعظمهن . .

يمكن ترجمة اسمها إلى البياض الذي هو لون حبنا .

شدها عن الأرض، ليضمها بين ذراعيه ثانية، بينما في الخارج كان القمر يغطي المراعي والمنحدرات بغطاءه الفضي . . وداخل الجدران السميكة للبيت القديم، كان الصمت يسود وتتجمع الظلال المعتمة في الزوايا . . لكنها لم تعد ظلالاً مخيفة . . فقد أخذت تمثل البيت والوعد والرضى .

* * *